مجلة جامعة الملك سعود، م ١٢، الآداب (٢)، ص ص٤٥١-٤٩٤ (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

رثاء الزوجات في العصرين الأموي والعباسي

عبدالرحمن إسماعيل السماعيل

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر بتاريخ ١٨/ ١٠/ ١٤١٨هـ؛ وقبل للنشر بتاريخ ١٦/ ١/ ١٤١٩هـ)

ملخص البحث. احتل الغزل بالمرأة مساحة كبيرة في الشعر العربي، فوقف الشاعر على ديار حبيبته واستوقف غيره، وبكى على فراقها ظاعنة واستبكى الآخرين، ولم يجد في ذلك غضاضة، بل رآه تعبيرا صادقا عن حبه، ومظهرا من مظاهر الوفاء للحبيبة. ولكنه في مقابل ذلك أحجم عن البكاء على فراقها ميتة، والوقوف على قبرها وفاء لها بعد موتها؛ لأنه رأى في ذلك ضعفا لا يليق بالمكانة الاجتماعية التي أحاط بها نفسه. وكانت الزوجة في مقدمة النساء اللائي أحجم الشعراء، إلا قليلا منهم، عن رثائها والتعبير عن مشاعر الوفاء لها بعد موتها؛ وذلك لأسباب لعل الاجتماعية منها أقوى من غيرها، حتى أصبح رثاء الزوجة في الشعر العربي ظاهرة تستحق الوقوف عندها لمعرفة مدى ارتباطها بالتغيرات والتحولات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع العربي بعد امتزاجه بغيره من المجتمعات الأخرى. هدف هذا البحث هو دراسة هذه الظاهرة منذ بروزها في شعر جرير، والبحث في الظروف التي أحاطت بالشعراء الذين رثوا زوجاتهم في العصرين الأموي والعباسي لمعرفة الدوافع التي جعلتهم يخرجون على سياق ثقافتهم الاجتماعية المتوارثة.

كنت، ومازلت، أجد في نفسي ميلا إلى شعر الرثاء، وأكثر من قراءته؛ لما يصوره من صدق العواطف ونبل الوفاء للميت. وكنت ألحظ أن أكثر شعر الرثاء قيل في رثاء الرجال،

وأن القليل قيل في رثاء النساء بعامة ، والزوجات بخاصة . كما لحظت ، أيضا ، أن كثيرا من الزوجات رثين أزواجهن بدموع حارة ، وأبدين جزعهن على فقدهم .[١] بينما لانجد إلا عددا قليلا من الشعراء رثوا زوجاتهم ، وكان جرير وابن الزيات ــ لكثرة الإشارة إليهما في المراجع ــ يبدوان وكأنهما الشاعران الوحيدان اللذان رثيا زوجتيهما في الشعر العربي . وقد وجدت في نفسي رغبة في البحث في هذا الموضوع لمعرفة الدوافع والأسباب وراء سكوت الشعراء عن رثاء زوجاتهم ، ثم أصبحت رغبة ملحّة لدراسته والكتابة عنه حينما اطلعت على كتاب *المراثي* لمحمد إبراهيم نصر الذي جمع فيه مجموعة من قصائد الرثاء في الشعر العربي ولم أجد فيه قصيدة واحدة لشاعر يرثي زوجته . وقد أشار في نهاية الكتاب إلى أن قلة رثاء الزوجات في الشعر العربي ظاهرة جديرة بالاهتمام ، ثم تساءل عن سر هذه الظاهرة ، وعن السبب الذي يمنع الشاعر عن إبداء عواطفه نحو زوجته ، أهو انعدام العاطفة ؟ أم توزعها بين عدد من الزوجات ؟ أم إحساس الرجل بأنه أعلى مكانة من المرأة وأن رثاءها سوف يحط من هذه المكانة ؟ أم تقاليد المجتمع وأعرافه هي التي تحول بين الرجل ورثاء زوجته ؟[٢]

وبعد الرجوع إلى المصادر القديمة و المراجع الحديثة ، ودواوين الشعراء للبحث عما قيل في الزوجات بعد موتهن في الشعر القديم ، انتهيت إلى أن عدم رثائهن في حقيقة الأمر ليس ظاهرة اجتماعية ، بل هو سياق اجتماعي تحوطه ثقافة اجتماعية وأعراف متوارثة منذ العصر الجاهلي ، وأن الخروج على هذا السياق هو الظاهرة التي يجب التساؤل عن أسباب بروزها .

وقد خرجت ، بعد البحث والتنقيب ، بعدد قليل من المقطوعات ، وعدد أقل من القصائد لعدد من الشعراء موزعين على مساحة زمنية وجغرافية واسعة (أثبت أسماءهم وعدد أبياتهم في قائمة ملحقة آخر هذا البحث) . ولابد أن نشير بداية إلى أننا نقصد بالمقطوعة ما جاء في سبعة أبيات أو أقل ، وما زاد على ذلك فهو قصيدة .

---

(١) أورد عمر الأسعد أسماء ثمان وعشرين امرأة رثين أزواجهن . انظر في هذا : عمر الأسعد ، *ديوان رثاء الأزواج في الشعر العربي* (بيروت : دار سبيل الرشاد ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، ١٦٩-٢٥٦ .

(٢) محمد إبراهيم نصر ، *من عيون الشعر ــ المراثي* (الرياض : دار الرشيد ، د . ت .) ، ٢٣١ .

وقد آثرت أن أقتصر على شعراء المشرق في العصرين الأموي والعباسي ، لأن رثاء الزوجات فيهما يمثل هذه الظاهرة خير تمثيل . أما شعراء الأندلس ، فإن المجتمع الذي عاشوا فيه كان أكثر انفتاحا من المجتمعات المشرقية ، ورثاء الزوجة عندهم والحديث عنها أمر لم تحطه ثقافتهم الاجتماعية بقيود الأعراف والتقاليد كما هي الحال في المشرق آنذاك . ولا أدل على ذلك من نظم ابن جبير ، الرحالة الأندلسي المعروف ، ديوانا كاملا في رثاء زوجته (أم المجد) سماه *نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح* . (٣)

أما في العصر الحديث ، فقد تعرضت الثقافة الاجتماعية إلى مؤثرات كثيرة غيرت من نظرة العربي إلى المرأة ، وغيرت من مكانة المرأة نفسها في المجتمع العربي ، فأصبحت صنوا للرجل ، وزميلة له في مواقع العلم والعمل ، مما جعل من رثاء الزوجة في الشعر العربي الحديث سياقا متوافقا مع سياق الثقافة الاجتماعية الحديثة ، لاظاهرة معاكسة له . وقد صدرت دواوين مستقلة في رثاء الزوجات مثل ما نرى عند عزيز أباظة ، وعبد الرحمن صدقي ، ومحمد رجب البيومي ، إلى جانب القصائد الكثيرة التي رثى بها الشعراء زوجاتهم .

بين الجارية و الزوجة

كثر في العصر العباسي رثاء الشعراء لجواريهم ، مما شكل ظاهرة جعلت من التوقف عندها أمرا ضروريا ، استكمالا لحلقات هذا البحث . وتفسيرها في رأينا نجده في كون الجواري يدربن على بعض المهارات الترفيهية المرغوبة التي لا تتوافر في حرائر النساء ، مثل رواية الشعر ، والعزف ، والغناء ، وبعض وسائل الترفيه التي تجذب الرجال إليهن . وكان الرجل يدفع أموالا طائلة للظفر بإحداهن ، وهو لا يبذل هذه الأموال إلا إذا كان راغبا فيها ، فيكون بسبب ذلك حريصا أشد ما يكون الحرص على صحتها وسلامتها ؛ لأنها إحدى مقتنياته الثمينة . وبما أن فراق الجارية كان ميسرا بوسائل عدة ، فإن الرجل لا يستبقيها إلا إذا كانت ذات مكانة عالية في نفسه ، ومن ثَمّ فإن موتها يكون كارثة عاطفية ومالية لسيدها .

---

(٣) منجد مصطفى بهجت ، *الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة* (الموصل : جامعة الموصل ، ١٩٨٨م) ، ١٣٨ .

ولم يقتصر رثاء الجواري على الشعراء فقط ، بل إن بعض الخلفاء قد فتنوا بجواريهم وهاموا بهن وجزعوا جزعا شديدا لموتهن ، فرثوهن ورثاهن الشعراء على ألسنتهم ، [٤] ويدور رثاؤهن على «أنهن كن الأنس والسرور والنعيم لأوليائهن ، وأنهم فقدوا بفقدهن رونق الحياة وبهجتها . . . وهذا ما يصور لنا الصلة التي كانت تجمع بين الجواري وأوليائهن بأنها لا تتعدى أداء دورهن في الترفيه . »[٥] لهذا فإننا لانكاد نجد في مراثي الجواري سوى صورة واحدة للجارية المرثية تنحصر في إطار من الترفيه والمؤانسة .

أما الزوجة فإن وضعها يختلف ، ويتسم بالتعقيد أكثر من الجارية ؛ فالجانب الجدي في الحياة مع الزوجة أكثر من الجانب الترفيهي ، والأعراف الاجتماعية العائلية تفرض على الزوج مع الزوجة قيودا لا تفرضها عليه مع الجارية ، لهذا فإن العاطفة عامل ضعيف في إمساك الزوجة أو تسريحها إذا ما قورنت بالعوامل الاجتماعية والعائلية الأخرى . وبسبب هذا ، رأينا بعض الشعراء يمسكون زوجاتهم ، ولكنهم في الوقت نفسه يهجونهن ، ويتمنون لهن الموت ؛ لأنه خلاصهم الوحيد منهن ، ولم يلجؤوا إلى الطلاق وهو متاح لهم ، وذلك من مثل قول الشاعر : [٦]

لقد كنتُ محتاجا إلى مَوت زوجتي ولَكنْ قرينُ السّوء بـــاق مُعَمّرُ
فيَا ليتَها صَارتْ إلى القَبْر عاجـــلا وَعَذّبها فيـــه نَكَـــيرٌ ومُنْكَرُ

ويعزز ما قلناه ما رواه ابن قتيبة عن نظرة العربي إلى موت بَعض الأقارب ، فقد أورد في *عيون الأخبار* ما نصه : « قال رجل لعبيد الله بن أبي بكرة : ما تقول في موت الوالد ؟ قال : ملك حادث . قال : فموت الزوج ؟ قال : عرس جديد . قال : فموت

---

(٤) انظر في جواري الخلفاء كتاب : *نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء* ، تأليف ابن الساعي ، تحقيق مصطفى جواد (القاهرة : دار المعارف ، د . ت .)، وكتاب : *المرأة في أدب العصر العباسي* ، تأليف واجدة عبد الله الأطرقجي (بغداد : وزارة الثقافة والإعلام ، د . ت .)، ٢٠٠ .

(٥) الأطرقجي ، *المرأة* ، ٢٠٢ .

(٦) ابن عبد ربه ، *العقد الفريد* ، تحقيق عبد المجيد الترحيني ، ط٣ (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ٧ : ١٢٣ .

الأخ ؟ قال : قص جناح . قال : فموت الولد ؟ قال : صدع في الفؤاد لا يجبر . »[٧] ولعل هذا القول يفسر كثرة رثاء الأبناء والإخوان في الشعر العربي مقابل القلة في رثاء الآباء والزوجات .

بناء على ذلك ، فإن هذه الدراسة لن تشمل القصائد التي قيلت في رثاء الجواري ، إلا إذا ثبت من أخبارهن أو واقع الشعر الذي بين أيدينا أن تلك الجارية كانت زوجة للشاعر . كما أن هذه الدراسة لن تشمل القصائد التي لم تتضح شخصية المرأة المرثية فيها ، أي تلك القصائد التي لم نجزم بأنها رثاء للزوجة . وذلك بخلاف ما ذهب إليه عمر الأسعد حين قام بجمع قصائد رثاء الأزواج في الشعر العربي وأصدرها في كتاب سماه *ديوان رثاء الأزواج في الشعر العربي*، فأدخل فيها القصائدَ التي رثى بها الشعراء جواريهم ، والمراثيَ التي لم تتضح فيها شخصية المرأة المرثية ، وذلك مثل ما أورده للنمر بن تولب ، والأحوص ، ولأبي حية النميري ، والشريف الرضي ،[٨] ولم أجد في دواوين هؤلاء الشعراء ما يشير صراحة إلى رثاء زوجاتهم . كما أن ابن المعتز الذي أورد طرفا من أخبار أبي حية لم يشر فيما أورد من مختارات له أنها في رثاء زوجته .[٩] ولم يشر جامع شعره يحيى الجبوري إلى أي قصيدة على أنها في رثاء زوجته . ويقال مثل ذلك عن الأحوص الأنصاري الذي أورد له الأسعد قصيدة علق عليها بقوله : « وليس فيه إشارة إلى المرثي ، ويبدو أنها زوجته أو جاريته . »[١٠] وليس في ديوان الأحوص ما يرجح أي احتمال بل اكتفى جامع الديوان بقوله قبل القصيدة : « وجاء في الزهرة . »[١١] ولا نستطيع في مثل هذه الحالة أن نصنف قصائد هؤلاء الشعراء في رثاء الزوجات .

---

(٧) ابن قتيبة ، *عيون الأخبار*، تحقيق يوسف علي الطويل (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ، ٣ : ١٠٤ .

(٨) انظر : الأسعد ، *ديوان رثاء الأزواج*، ٤١-٥٦ ، ٦٨-٦٩ ، ٩٦-٩٨ ؛ والصفحات ١٤ ، ٢٠ ، ٦٠ ، ١٠٣ .

(٩) ابن المعتز ، *طبقات الشعراء*، تحقيق عبد الستار فراج (القاهرة : دار المعارف ، د . ت .) ، ١٤٣-١٤٦ .

(١٠) الأسعد ، *ديوان رثاء الأزواج* ، ٢٠ .

(١١) انظر : *شعر الأحوص الأنصاري*، جمع وتحقيق إبراهيم السامرائي (بغداد : مكتبة الأندلس ، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) ، ١٦٢ .

وقد استبعدت قصائد ديك الجن الحمصي في جاريته (ورد) لسببين ، أولهما : أن الروايات اختلفت حول المرأة التي قتلها ، هل هي زوجته ، أو جاريته ، وشعره لا يحدد شخصيتها . وثانيهما : أن تلك المرأة المرثية ماتت مقتولة بيد الشاعر نفسه بسبب مكيدة مدبرة ، وما قاله من قصائد بعد ذلك جاءت إما تبريرا لهذا العمل وافتخارا به ، أو إعلانا للندم بعد أن عرف حقيقة ما دبر له .

بناء على ما تقدم ، فإن هذا البحث سوف يكون محاولة للإجابة عن سؤالين ، هما : لماذا سكت الشعراء عن رثاء زوجاتهم ؟ ولماذا رثاهن بعضهم ؟ وللإجابة عنهما فإنه لابد من القيام برحلة في أجواء العلاقة بين الشعراء والنساء نبدأها بالفقرة التالية .

الأنثى في مجتمع ذكوري

١-١ يرتبط الرثاء بالمديح ارتباطا وثيقا ؛ فالمديح ذكر للخلال الحميدة للحي ، والرثاء ذكر للخلال الحميدة للميت ، أو هو ، في الحقيقة ، بكاء على تلك الخلال التي فقدها الناس ، فكلاهما في النهاية مدح للقيم وذكر للخصال الحميدة الممتدحة . وقد أشار إلى هذا الترابط بين هذين الغرضين بعض النقاد القدماء ، أمثال قدامة بن جعفر [١٢] وابن رشيق القيرواني . [١٣] وقصائد الرثاء في الشعر العربي تكاد تضاهي قصائد المديح عددا ، ولكن المطلع على الشعر العربي يجد أن هذين الغرضين قد استأثر بهما الرجل . ويبدو هذا أمرا طبيعيا في مجتمع يرى الرجولة قيمة أو معيارا تُرد إليه كثير من القيم الاجتماعية التي يمجدها الإنسان العربي ، مثل الكرم والشجاعة . وقد برزت هذه القيمة بروزا واضحا في قصائد الرثاء الرجالية التي نقرأها في شعرنا القديم . وإذا كانت الرجولة قيمة اجتماعية متقدمة تحتل الصدارة ، فإن الأنوثة قيمة اجتماعية مخفية غير معلنة ، تقف خلف الرجل دائما ، وعبء ثقيل يحتاج إلى حمايته وحراسته . وقد قرنت في اللغة بالحرام الذي يجب عدم انتهاكه . وردفي مادة (حرم) في *لسان العرب* : « وحَرَمُ الرجل :

---

(١٢) قدامة بن جعفر ، *نقد الشعر* ، تحقيق كمال مصطفى ، ط٣ (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) ، ١٠٠ .

(١٣) ابن رشيق القيرواني ، *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده* ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٥ (بيروت : دار الجيل ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١ م)، ٢ : ١٢١ .

عياله ونساؤه ، وما يحمى ، وهي المحارم . » وجاء في المادة نفسها في *المعجم الوسيط* : «(الحرمة)مالا يحل انتهاكه . و ــ المرأة . و ــ حرم الرجل وأهله . و(الحريم) ما حرم فلا ينتهك . . . ، وما دخل في الدار مما يغلق عليه بابها . » وقد كان ميلاد البنت بشرى سيئة لوالدها ، ومصدرا من مصادر الحزن . وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الإحساس عند بعض العرب في القرآن الكريم ، ومما ورد في ذلك قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾** ﴾ الآيات (٥٨– ٥٩) وقوله في سورة الزخرف : ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾** ﴾ [الزخرف : ١٧] ، وما وأدُ البنات الذي عرف عن العرب في الجاهلية إلا تعبير عملي عن هذه النظرة السيئة التي شدد القرآن على محاربتها بآيات عديدة .

تسربت هذه النظرة إلى نفوس بعض العرب بعد الإسلام ، ولكنها اتخذت مظهرا آخر من مظاهر الوأد ، وهو الوأد العاطفي والاجتماعي ، فتمنوا موت البنت ، و رأوا في القبر خير بعل لها ، وخير صهر لأبيها . وقد أورد القيرواني في *زهر الآداب* أبياتا تكشف عن رغبة بعض العرب في موت بناتهم واعتبارهم القبر خير بعل تزف إليه البنت ، ومما أورده في هذا الباب قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : [١٤]

لكلِّ أبي بنْت يُرَجَّى بقـــاؤها ثلاثةُ أصْهـــار إذا ذُكرَ الصِّــهْرُ
فَبَيْتٌ يُغَطِّيــــها وبَعْـــلٌ يصونُها وقَبْرٌ يواريهـــاً وخَيْرُهُمــا القَبْرُ

وقول عقيل بن علّفة ، وكان أغير العرب :

إنــــّي وإنْ ســــيقَ إليّ المَهــــْرُ
أَلْــــفٌ وعُبــْدانٌ وذَوْدٌ عَشــــْرُ
أَحَبّ أَصْهــــــــاري إليّ القَبرُ

ويروي القيرواني بعد ذلك قصة عن أبي العباس المبرد يقول فيها : « دخل علينا ابن البهراني فأنشدنا » :

---

(١٤) الحصري القيرواني ، *زهر الآداب* ، تحقيق زكي مبارك ، ط٢ (بيروت : دار الجيل ، د.ت .) ، ٢ : ٥٢٩ .

لولا أميمةُ لمْ أجْزعْ من العـــدَم ولم أجُبْ في الليالي حنْدس الظُّلَـم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزّال على الحـــرُم

وكانت أميمة بنت أخته ، وكان قد تبناها ، ثم غابت غيبة فسألناه عنها فأنشد :

أمست أميمة مغمورا بها الرَّجَـم لدى صَعيد عليه التّربُ مُرْتَكـم
قد كنت أخشى عليها أن يُؤخرَها عنّي الحمامُ فيُبدي وجهَها العَدَم
فالآن نمْتُ فلا هَمٌّ يؤرّقـــني تَهْدا العَيونُ إذا ما أوْدت الحـرُم
للموتَ عندي أياد لستُ أنكرُها أحيا ســـرورا وبي مما أتى ألَمُ

ورأى بعضهم أن بكاء النساء عجز يحط من قيمة الرجال؛ فهن لسن من زينة الحياة الدنيا التي ذكرها الله في القرآن ، ولا يحملن سيفا ولا يقدن جيشا ، بل إنهن يلدن الأعداء ، ويورثن أموال آبائهن للأباعد من الناس ، كما أنهن من حبائل الشيطان ؛ فهن السبب في خروج آدم من الجنة . هذه النظرة والآراء البعيدة عن روح الإسلام وتعاليمه السمحة نجدها في قول البحتري في قصيدة يعزي بها أبا نهشل محمد بن حميد الطوسي عن ابنته ، وهي أقرب في مضمونها إلى هجاء المرأة بشكل عام من تعزية تقال لرجل فقد ابنته . يقول البحتري في هذه القصيدة : (١٥)

أتُبكّي من لا ينازل بالسيـــــ ـــف مُشيحـا ولا يَهـزّ اللـــواءَ
والفتى من رأى القبورَ لمَـا طـــ ـــاف بــه مــنْ بنـاتـه أكْفَـــاءَ
لَسْـنَ مــن زينـــةَ الحيـــ ـــاة كعدّ اللهَ منهـــا الأموالَ والأبناءَ
قـدْ ولَـدْنَ الأعــداءَ قـدْما وورّثْـ ـنَ التلادَ الأقـاصـــيَ البُعَـــداءَ
لم يئـد كُثـــرَهن قيَـــسُ تـميم عَيْلة بـــل حَميـــّةَ وإبـــاءَ
وشُعَيْبٌ من أجلهـــن رأى الوحْـ ـــدةَ ضَعْـــفا فاستأجر الأنبيـاءَ
واستَزَلّ الشيطـانُ آدمَ في الجَنّـ ـــة لمّا أغرى بـه حـــواء
وتَلَفّتْ إلى القبائــل فانظـــرْ أُمّهــات يُنْســـبْنَ أم آبـــاءَ
ولَعَـمْري مـا العجـــزُ عنديَ إلا أنْ تَبيـــتَ الرجـالُ تبكي النســاءَ

(١٥) *ديوان البحتري*، تحقيق حسن كامل الصيرفي (القاهرة : دار المعارف ، د . ت .)، ١ : ٣٩ .

ويقول البحتري من قصيدة أخرى يعزي فيها أبا حسن بن الفرات عن ابنته : (١٦)

ومن نعم الله لاشكّ فيه بقاءُ البنين وموتُ البنات

ومما يندرج تحت هذا الباب تعزية ابن الرومي لعلي بن يحي عن ابنته ، وقد ردد ابن الرومي الفكرة الشعبية الشائعة التي ترى أن القبر خير بعل للبنت، وخير صهر للرجل ، يقول من هذه القصيدة مخاطبا المعَزّى : (١٧)

لاتبعدنّ كريمةٌ أودعتَها صهرا من الأصهار لايخزيكا
إني لأرجو أن يكونَ صداقُها منَ جنة الفردوس ما يرضيكا
لاتَأسَيَنّ لها فقد زوّجتَها كفؤا وضمّنت الصداقَ مليكا

وفي القرن الرابع يردد كشاجم هذه الفكرة حين يعزي الشاعر الصنوبري عن ابنته : (١٨)

أتَأسَى يا أبا بكر لمَوت الحُرّة البكرِ
وقد زوجتَها قبراً وما كالقبر من صهرِ
فتاةٌ أُهْديَت فيه من الخدر إلى القبر
فقابلْ نعمةَ الله التي أولاك با لشكر

ونجد لهذه الأفكار صدى في *لزوميات* المعري حيث يقول عن البنات ضمن قصيدة طويلة : (١٩)

ولَسْنَ بدافعات يومَ حرب ولا في غارة مُتَغَشّمات
وَدَفْنٌ ، والحوادثُ فاجعاتٌ ، لإحداهنّ إحدى المكرمات
وقدْ يَفْقدنَ أزواجا كراما فيا للنّسوة المُتَأيّمات
يَلدْنَ أعاديا ويَكُنّ عارا إذا أمْسَيْن في المُتَهَضَّمات

١-٢ فيَ مثل هذا المجتمع الذي تشيع بين أفراده هذه الأفكار ، ضاقت الدائرة حول

---

(١٦) *ديوان البحتري* ، ١ : ٢٨٢ .

(١٧) *ديوان ابن الرومي* ، تحقيق وشرح عبد الأمير علي مهنا (بيروت : دار ومكتبة الهلال، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م) ، ٥ : ١٤ .

(١٨) *ديوان كشاجم* (بيروت : المطبعة الأنسية، ١٣١٣هـ)، ٧١ .

(١٩) أبو العلاء المعري، *اللزوميات*، ط٢ (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ١ : ١٥٧ .

المرأة ، وضاق المجال الذي يستطيع الشاعر أن يتحرك فيه لرثائها ، وقرنت بالطفل لضيق الكلام فيها كما يقول ابن رشيق القيرواني : « ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلا أو امرأة ؛ لضيق الكلام عليه فيهما ، وقلة الصفات . »(٢٠) والقيرواني هنا يتحدث عن سياق أدبي نتج عن سياق اجتماعي رأينا ملامحه فيما سبق من نماذج شعرية ، والسياقان في الحقيقة متلازمان ، فالسياق الأدبي ــ كما يقول محمد حافظ دياب : «صياغة تعبيرية سوسيولوجية للعلاقات الاجتماعية المتفاعلة والمتداخلة . »(٢١) وسبب ذلك أن الشاعر اعتاد أن يرثي الرجال بما كان يمدحهم به من خلال وصفات ظلت مقصورة على الرجل مثل الكرم والشجاعة ، ويبكي على تلك الشمائل التي فقدت بفقد المرثي . ولم يعتد العربي أن يبكي على امرأة بعد موتها وهو الذي - كما رأينا - يتمنى موتها ويراه أكرم نزال على الحرم .

والعواطف تجاه المرأة في حياتها مجالها واسع ، ولا يضيق الكلام فيها ، ولهذا احتل الغزل بالمرأة مساحة واسعة من الشعر العربي ، غير أن رثاءها جاء قليلا لا يتناسب مع ما نراه من كثرة الغزل ، وذلك بسبب الثقافة الاجتماعية المقيدة بالموروثات والتقاليد الاجتماعية . ونتيجة لذلك فإنه من النادر جدا أن تجد شاعرا عربيا قديما رثى أختا أو بنتا ،(٢٢) وقليل

---

(٢٠) ابن رشيق القيرواني ، *العمدة* ، ٢ : ١٥٤ .

(٢١) محمد حافظ دياب ، « النقد الأدبي وعلم الاجتماع : مقدمة نظرية ، » *فصول* ، ٤ ، ع١ (١٩٨٣م)، ٥٩ .

(٢٢) كل ما وقفنا عليه في رثاء الأخوات اثنا عشر بيتا ، ثلاثة منها لأبي عبد الرحمن العتبي أوردها المبرد في *التعازي والمراثي* ، تحقيق محمد الديباجي ، ط٢ (بيروت : دار صادر ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢ م)، ٨٥ . وتسعة أبيات لأبي فراس الحمداني . انظر ديوانه ، تحقيق سامي الدهان (دمشق : المعهد الفرنسي ، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م)، ١ : ٤١ . أما البنات ، فلم نجد رثاء لهن فيما اطلعنا عليه من المصادر إلا عند شاعرين ، هما : حسان بن ثابت الذي رثى ابنته بثلاثة أبيات ، انظر : *ديوانه* ، تحقيق سيد حنفي حسنين ومراجعة حسن كامل الصيرفي (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤م)، ٤٤٢ . والشاعر الثاني هو الصنوبري في القرن الرابع الهجري ، الذي رثى ابنته بعدد من القصائد والمقطوعات ، انظر : *ديوانه* ، تحقيق إحسان عباس (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٠م)، ٩٩-١٠٥ ، ١٤٢ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٣٤٣ ، ٢٦٥ .

من الشعراء رثوا أمهاتهم .[٢٣] وقد تأثر بهذه النظرة رثاء الزوجات في الشعر العربي فجاء أيضا قليلا كما سنرى في الصفحات التالية إن شاء الله .

وإذا ما قرنّا مديح الرجال كثرة برثائهم ، فإننا لا نستطيع أن نفعل ذلك مع الغزل بالنساء ورثائهن ؛ فواقع الشعر العربي الذي بين أيدينا يؤكد أن كثرة الغزل بالمرأة يقابله قلة في رثائها ، وكثرة مديح الرجال يقابله كثرة في رثائهم . والسبب في ذلك كما رأينا هو استنكاف العربي من البكاء على المرأة ، وكون المجال في الغزل مجالا رحبا أمام الشاعر ، والكلام فيه كثير والصفات فيه كثيرة ، و ما يستطيع الشاعر قوله في الغزل لا يمكنه قوله في الرثاء ؛ فصفات الجمال وما يستتبعها من حب ولوعة ووصال وهجر وغير ذلك ، لايمكن أن يذكرها الشاعر راثيا كما يذكرها متغزلا .

أما المديح فأمره يختلف ، فالصفات التي يمدح بها الرجل هي الصفات نفسها التي يرثى لفقدها ؛ لأن الشاعر يبكي الخلال والصفات التي كان يمدح بها ذلك الرجل ، حتى أصبح ذلك من المسلمات الثابتة بين الشعراء ، مما دعا قدامة بن جعفر أن يحدد بلهجة جازمة الصفات التي يجب أن يُمدح بها الرجال وهي عنده أربع صفات أساسية ، هي : العقل ، والشجاعة ، والعدل (الجود) ، والعفة . ثم يعد «القاصد لمدح الرجال بهذه الخصال الأربع مصيبا ، والمادح بغيرها مخطئا . . . والبالغ في التجويد إلى أقصى حدوده من استوعبها ولم يقتصر على بعضها .»[٢٤] والمرثية عنده ليس بينها وبين المدحة فصل إلا أن « يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك مثل : (كان ، وتولى ، وقضى نحبه) وما أشبه ذلك . . . لأن تأبين الميت بمثل ما يمدح به في حياته .»[٢٥] وأكثر ما بكى الشعراء في مراثيهم للرجال هذه الصفات الأربع وما يلتصق بها من خلال تفتقدها المرأة بسبب تكوينها الطبيعي

---

(٢٣) انظر كتاب *رثاء الأمهات* ، لمحمد إبراهيم حوّر (د . م . : د . ن . ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)؛ فقد أورد قصائد لستة شعراء رثوا أمهاتهم هم : ابن الرومي ، وأبو فراس الحمداني ، وأبو العلاء المعري ، والشريف الرضي ، والصنوبري ، وكشاجم . ولم يذكر ابن سناء الملك وابن نباتة السعدي وابن سنان الخفاجي ، وهم من الشعراء الذين رثوا أمهاتهم .

(٢٤) قدامة بن جعفر ، *نقد الشعر* ، ٦٦ .

(٢٥) قدامة بن جعفر ، *نقد الشعر* ، ١٠٠ .

وموقعها الاجتماعي والعائلي الذي جعلها خارج دائرة تلك الخلال، بل ، وخارج الدائرة الاجتماعية التي يمكن أن يجهر فيها الشاعر . على الرغم من وجود بعض النساء الجديرات بالإشادة في حياتهن وبعد موتهن . فنساء الخلفاء والملوك على سبيل المثال ـ وبعضهن ممن اشتهر بالكرم وأعمال الخير - لانجد في مدحهن أو رثائهن في الشعر العربي إلا الشيء القليل ؛ وذلك بسبب القيود الاجتماعية التي ضربها العربي على حريمه ، إضافة إلى المزالق التي يمكن أن يقع فيها الشاعر أثناء رثائه لإحداهن ، وأقرب مثل على ذلك ما وقع به المتنبي حين رثى أخت سيف الدولة ، و قال يخاطب الأرض التي دفنت فيها :

وهل سمعت سلاماً لي ألَمّ بها فقد أطَلْتُ وما سَلّمْت من كَثَب

ويروي الثعالبي في يتيمته أن أبا بكر الخوارزمي قال : «لو عزاني إنسان عن حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها ، وضربت عنقه على قبرها . »[٢٦] كما أخذ على المتنبي قوله في رثاء أم سيف الدولة :

بعيشك هَلْ سَلَوْت فإن قلبي وإن جانَبْتُ أرضَك غيرُ سالي
صَلاةُ الله خالقنا حَنوطٌ على الوجه المُكَفّن بالجمال

وقد قال الصاحب بن عباد عن هذه المرثية بأنها « تدل مع فساد الحَس ، على سوء أدب النفس . »[٢٧]

وكأني بالمتنبي حين أقدم على رثاء هاتين المرأتين كان مسكونا بثقافته الاجتماعية التي تفضل الذكور على الإناث ، فلجأ إلى تبرير رثائه إياهما بقوله عن أخت سيف الدولة :

وإن تكنْ خُلقَتْ أنثى لقد خُلقَتْ كريمة غيرَ أنثى العقل والحَسَب
فما تَقَلّدَ باليـاقوت مُشْبِهُها ولاتَقَلّد بالهِنْديّة القُضُب

وقوله عن أمه :

ولو كان النساء كَمَنْ فَقَدْنا لَفُضِّلَت النساءُ على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التّذكير فَخر للهلال

---

(٢٦) أبو منصور الثعالبي، يتيمة *الدهر*، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢ (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م)، ١ : ١٦٨ .

(٢٧) الثعالبي، يتيمة *الدهر*، ١ : ١٦٨ .

وهو في هذه الأبيات يرفع هاتين المرأتين إلى مرتبة الذكورة ، بل إلى ما فوقها حين جعلهما لا نظير لهما بين الرجال والنساء ، وكأنه يخلق مبررا أمام نفسه وأمام الآخرين لرثائهما . وهو بهذا يكشف عن صراع داخل نفسه بين ما تدعوه إليه علاقته بسيف الدولة ، ورغبته في المحافظة عليها ، وبين الثقافة الاجتماعية المتوارثة التي تستنكف من البكاء على المرأة وتراها عجزا لا يليق بالرجال .

الزوجة في الشعر العربي

١ - ١ ليس من المعهود ـ كما يقول محمد حسن عبد الله ـ « أن يتغزل الشاعر بزوجته غزلا حقيقيا يكشف عن أشواقه إليها . إنه إنما يفعل ذلك إذا كانت حبيبة ، فإذا تزوجا فقد دخلا في دائرة الخصوصية . »[٢٨] وليس من المعهود أيضا أن يمدح زوجته ، أو يفتخر بها ، وما نراه من أبيات قليلة أو قطع شعرية لدى بعض الشعراء فإنها لاتمثل اتجاها بارزا في المسار الشعري ، بل هي منعطفات صغيرة في سياق الشعر العربي والثقافة العربية ، وذلك مثل أبيات الشنفرى التي يذكر فيها امرأته ويمدح خلالها ويشيد بحسن جوارها وعطفها على الآخرين .[٢٩] وبعض الإشارات العابرة التي ترد في بعض القصائد ، مثل ما يورده الشاعر أحيانا من حوار بينه وبين امرأته حين يزمع على الرحيل إلى ممدوحه يكون في الغالب تسفيها لرأي المرأة .

أما إحجام الشاعر عن رثاء زوجته فلا يعني تحجر مشاعره أمام الحوادث المفجعة ، بل هو اندماج في سياق اجتماعي سيطرت عليه ثقافة غرست في أذهان أتباعها أن بكاء الرجل على المرأة عجز ونقص في الرجولة ، والإنتاج الأدبي كما يقول لوكاتش «جزء لا يتجزأ من العملية الاجتماعية العامة . »[٣٠]

---

(٢٨) محمد حسن عبد الله ، *صورة المرأة في الشعر الأموي* (الكويت : ذات السلاسل ، ١٩٨٧م) ، ٣١٢ .

(٢٩) انظر : *المفضليات* ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط ٥ (القاهرة : دار المعارف) ، ١٠٨ ، القصيدة رقم ٢٠ .

(٣٠) انظر : دياب ، «النقد الأدبي ، » ٦٩ .

١-٢ سوف نتناول نصوص رثاء الزوجات التي استطعنا الوقوف عليها في العصرين الأموي والعباسي من خلال محورين مهمين في النصوص الشعرية ، هما العاطفة ، واللغة ؛ لتلازمهما في العمل الأدبي تلازما يجعل من الصعب الحديث عن أحدهما بمعزل عن الآخر . «فالقيم الشعورية والقيم التعبيرية» كما يقول سيد قطب كلتاهما وحدة لاانفصام لها في العمل الأدبي ، وليست الصورة التعبيرية إلا ثمرة للانفعال بالتجربة الشعورية ، وليست القيمة الشعورية إلاما استطاعت الألفاظ أن تصوره وأن تنقله إلى مشاعر الآخرين . »[٣١]

والمقصود بذلك إحساس الشاعر بالحدث أي بفقد زوجته ، وقدرته على التعبير عنه بلغة قادرة على تصوير ذلك الإحساس « فمن المشكوك فيه» ــ كما يقول أحمد الشايب ــ «أن يستطيع الأديب عرض العواطف القوية أو بعثها في نفوس قرائه دون أن يحسها في نفسه قوية ثم يتنفس عنها بهذا الأدب القوي التأثير ، والشاعر لا يبكيك إلا إذا استنفد ماء شؤونه ، . . . والعامل الفذ للظفر بالسلطان العاطفي على القراء هو انبعاث الشعر والنثر عن النفس منفعلة صادقة الشعور . » [٣٢]

من الأشياء المسلمة بداهة ، أن الشاعر حين يبكي زوجته إنما يبكي ، في الحقيقة ، جزءا من حياته الخاصة . ومما لاشك فيه أنه صادق العاطفة في هذا الرثاء الذي لم تدفعه إليه سوى أحاسيسه ومشاعره الخاصة . و سوف نختبر هذه العاطفة من حيث القوة والضعف من خلال تحليلنا للغة النص ، ومقارنته بما قد نجده للشاعر من نصوص رثائية أخرى مشابهة للنص موضع الدراسة ؛ لأن الشعراء الذين سوف نتعامل مع نصوصهم عاشوا تجارب متماثلة جعلتهم يقفون عاجزين أمام الموت حينما فقدوا زوجاتهم ، ولكن استقبالهم لهذه التجارب والاستجابة لها يتفاوت من شاعر إلى آخر . فالعاطفة مرآة التجربة وهي ليست في مستوى واحد من الحرارة والوضوح في النصوص التي أمامنا ، وذلك راجع في رأينا إلى علاقة الشاعر بزوجته ورؤيته لها ، أو بعبارة أخرى ، ما يراه الرجل في زوجته ،

---

(٣١) سيد قطب ، *النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه* ، ط٤ (بيروت : دار العربية ، ١٩٦٦م) ، ١٩ .

(٣٢) أحمد الشايب ، *أصول النقد الأدبي* ، ط٦ (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م) ، ١٨١ .

ومن ثم إحساسه بفقدها من خلال تلك الرؤية ؛ فمن الشعراء من أحس بفقد زوجته من خلال إحساسه بأطفاله الذين فقدوا أمهم ، وحاجته هو إلى من يحمل عنه عبء رعايتهم ، فهو يبكي نفسه ، و زوجته ، وأطفاله الأيتام . ومن الشعراء من قضى مع امرأته سنوات طويلة وتآلفت حياته مع حياتها ووجودها كما تتآلف مع أي شيء آخر في حياته ، فتركت بموتها زوجا كبيرا يعاني مرارة الوحدة ، فهو يبكي الزوجة والرفيقة في مشوار الحياة . ومن الشعراء من بكى زوجته التي فقدها بُعَيْد الزواج بفترة قصيرة بعد أن بذل مالا كثيرا وقضى وقتا طويلا للظفر بها ، فهو يبكي الزوجة الحبيبة . وهذه الظروف لابد أنها عرضت لبعض الشعراء منذ العصر الجاهلي ، ولابد أنهم أحسوا أيضا بفقد زوجاتهم ، ولكن لم يقدم على رثائهن سوى عدد قليل ممن استطاعوا أن يتجاوزوا قيود الثقافة الاجتماعية التي أجبرت كثيرا من الشعراء على كبت مشاعرهم تجاه زوجاتهم .

هذه الصور التي رأيناها للزوجة في النصوص التي أمامنا كانت في رأينا دافعا مهما لرثائها في الشعر العربي القديم ، مما شكل ظاهرة ساعدت بعض العوامل الاجتماعية على بروزها ، ولعل أهم تلك العوامل هو احتكاك المجتمع العربي بغيره من مجتمعات الشعوب الأخرى التي دخلت تحت حكم الدولة العربية . وقد كان لهذا الاحتكاك الاجتماعي أثر واضح في التخفيف من النظرة السلبية نحو المرأة .

هذا التحول التدريجي في موقف الشاعر من رثاء الزوجة ما هو إلا جزء من التحولات والتغيرات التي طرأت على المجتمع العربي منذ انفتح على المجتمعات الأخرى . والشعراء هم العدسة الاجتماعية الراصدة لتلك التحولات ، فالأديب أو الشاعر ــ كما يقول يوسف ميخائيل ــ : « عندما يعبر عن أفكاره ومشاعره فإنه لا يعبر عن تلك الأفكار والمشاعر في عزلة عن الواقع الاجتماعي المحيط به . إنه لا يقدم للقارئ تلك الأفكار والمشاعر مجردة ، بل يقدمها في سياق أو أحداث أو مواقف أو علاقات اجتماعية . »[٣٣] وقائمة الشعراء التي بين أيدينا تؤكد لنا أنه كلما تأخر العصر أصبح الشعراء الذين يرثون زوجاتهم أكثر والقصائد أكثر ، مما يشير إلى أثر العامل الزمني في التخفيف من تلك النظرة .

---

(٣٣) يوسف ميخائيل أسعد ، *سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب* (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦)، ٤١ .

و توضح لنا أيضا أن أكثر الشعراء الذين رثوا زوجاتهم عاشوا في مجتمعات حضرية ، وكان بعضهم ممن تولى مناصب عالية في الدولة الإسلامية على اختلاف عصورهم كما سنعرف فيما بعد إن شاء الله . وهذا يؤكد لنا أثر الانفتاح الاجتماعي ، والمستوى المعيشي المتحضر في توجيه الأدب وجهة كانت مغلقة في المجتمع العربي قبل انفتاحه واندماجه في المجتمعات الأخرى ذات القيم والأعراف الاجتماعية المختلفة . وسوف نرصد أثر هذه التحولات منذ بداياتها الأولى في العصر الأموي وذلك في الفقرة التالية .

البدايات

قبل الوقوف عند جرير الذي نعد رثاءه لزوجته البداية الحقيقية لرثاء الزوجات في الشعر العربي ، لابد أن نشير إلى أحد عشر بيتا في ثلاث مقطوعات لثلاثة شعراء ، يبكي كل واحد منهم الزوجة الأم ، ويتألمون لأطفالهم الصغار الذين صاروا ـ بعد فقدهم أمهاتهم ـ مصدر حزن وشقاء لهم . وهذه الأبيات على الرغم من قلتها إلا أنها تمثل في رأينا إرهاصات لظهور هذا الاتجاه الرثائي في الشعر العربي .

الشاعر الأول مويلك المزموم ، ذكره أبو تمام في حماسته دون الإشارة إلى عصره ، وأورد له مقطوعة من ستة أبيات[٣٤] ذكر أنها في رثاء امرأته (أم العلاء) . وقد ذكر عفيف عبد الرحمن في *معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين* أنه شاعر ذهلي جاهلي من شعراء البحرين ، [٣٥] وهذا لا يتوافق مع لغة الأبيات وما فيها من إيحاءات إسلامية ترجح أنه شاعر إسلامي . أما الأبيات التي أوردها أبو تمام فهي :

امرُرْ على الجَدَث الذي حلّتْ به ... أُمُّ العلاء فنادها لو تسمع
أنّى حَلَلْت وكنتَ جدَّ فروقة ... بلدا يَمُرُّ به الشجاع فيفزع
صلّى عليكَ الله من مفقودةً ... إذْ لا يلائمُك المكان البلقع
فلقدْ تَرَكت صغيرة مَرحومة ... لُمْ تَدْرِ مَا جزَعٌ عليكِ فتجزع

(٣٤) أبو تمام ، *ديوان الحماسة* . شرح *التبريزي* (بيروت : دار القلم ، د . ت .)، ١ : ٣٧٤ .

(٣٥) عفيف عبد الرحمن ، *معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين* (الرياض : دار العلوم ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ، ٥٦٢ .

فَقَدَتْ شـمائلَ من لزامك حُلوة ... فتبيتُ تُسهرُ أهلَها وتُفَجّع
وإذا سمعتُ أنينَها في لَيلَها ... طَفقَتْ عليك شؤونُ عَيْني تدمع

أما الشاعر الثاني ، فقد ذكره أبو العباس المبرد في *كتاب التعازي والمراثي* دون تسمية ، فقال : « قال رجل من الأنصار يذكر امرأة كانت له ، وكانت به برة ، وله حافظة إذا غاب ، وسارة إذا حضر ، فأصيب بها» : (٣٦)

ألاما لهذا البيت ليس بذي أهل ... تنكرتَ ما قد كنتَ تألف من قبل
أيا جارتا لا تَبْعدَي خَيْرَ جارةَ ... لبَعْل وأحناه على وَلَد طفل
فلو أنني كنتُ العليلَ لأيقظتْ ... بَنيهاً وما نامت ولا فَعَلتْ فعْلي

والشاعر الثالث غير معروف الاسم أيضا وله بيتان فيهما إقواء أوردهما ابن عبد ربه في *العقد الفريد* دون أن ينسبهما إلى شاعر معين ، فقال : « وقال أعرابي يرثي امرأته»(٣٧) :

فوالله ما أدري إذا الليلُ جنّني ... وذكّرنيها أيُّنا هو أوجعُ
أمُنْفَصِلٌ عن ثَدي أُمٍّ كريمة ... أم العاشقُ النابي به كلُّ مَضجَعِ

جرير وأم حزرة

عاش جرير حياته بين البادية والحاضرة ؛ فتاريخه يحدثنا بأنه قضى شطرا من شبابه في منازل قومه باليمامة قبل أن ينتقل إلى البصرة ليكون قريبا من مراكز الشعراء والرواة حين بدأ مهاجاته مع الفرزدق والأخطل . وبسبب هذا الامتزاج بين البداوة والحضارة في حياته فإننا لا نرى غرابة في استفتاحه رثاءه لأم حزرة بـ(لولا)التي تفيد امتناع شيء لوجود شيء ، مما يدل على التردد في ذكر زوجته بعد وفاتها ، ويكشف عن صراع بين إحساسه نحوها وبين الثقافة الاجتماعية التي تحيط به ، وذلك في قوله : (٣٨)

---

(٣٦) المبرد ، *التعازي والمراثي* ، ١٦٨ .

(٣٧) ابن عبد ربه ، *العقد الفريد* ، ٣ : ٢٣٦ .

(٣٨) شرح *ديوان جرير* ، قدم له وشرحه تاج الدين شلق (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) ، ٢١٧ .

لولا الحياءُ لعادني استعبار ولزرتُ قبرَكِ والحبيبُ يُزار

وهو مطلع قصيدة طويلة يهجو بها الفرزدق وقومه بنيَ مجاشع ، ويفخر بنفسه وبقومه ، قدم لها برثاء زوجته أم حزرة بأربعة وعشرين بيتا ، وكانت توفيت قبل ذلك بزمن ، كما يفهم من البيتين التاليين :

تحيي الرواسُ ربعَها فتُجدّه بَعْدَ البلَى وتُميتُه الأمطار
وكأنّ منزلَة لها بجُلاجل وَحْيُ الزّبُور تُجدّه الأحبار

والفعل (عادني) في البيت الأول يدلّ على إتيان الشيء مرةً بعد أخرى ، ففي *المعجم الوسيط* جاء في مادة (عاد) ما نصه : «عاد الشيءَ : أتاه مرة بعد أخرى . وعاد الشيءُ فلانا : أصابه مرة بعد أخرى . » وهو يشير إلى أن الشاعر قد بكى زوجته بعد وفاتها مباشرة ؛ فقد كانت رهبة الموت وطغيان العاطفة أقوى تأثيرا في نفسه من الأعراف الاجتماعية . أما الآن ، وبعد أن هدأت نفسه ، وخففت الأيام من جيشان عاطفته ، فإنه لا يستطيع بكاءها ولا زيارة قبرها على الرغم من رغبته الشديدة به ، ومن معرفته بأنها جديرة بالزيارة ؛ لأن الأعراف الاجتماعية المغروسة في نفسه تقف حائلا بينه وبين تلك الزيارة ؛ والسبب في كون هذا الحبيب زوجته ، والزوجة في عرف المجتمع غير الحبيب الذي يجوز للشاعر أن يبكيه ، ويستبكي غيره ، وهي سنة شعرية عرفها الشعراء وتعارف عليها المجتمع منذ وقف امرؤ القيس واستوقف صاحبيه للبكاء من ذكرى حبيبه ومنزله . ولكن امرأ القيس ومن جاء بعده من الشعراء بكوا صبابة وحبا ، وذرفوا الدموع الغزار إثر الحبيبة وذكراها ، ورأوا في ذلك تأكيدا للحب ، وإعلان وفاء للحبيب ، وكانوا بذلك يؤصلون شكل العلاقة بين المحبين . وحين تغزل جرير بأم حزرة (خالدة) قبل زواجه منها ، سار على سنة من سبقوه من الشعراء ، فلم يتردد في أن يذرف دموعه ، وأن يبكي بصوت عال إثر الحبيبة الظاعنة دون أن يخالجه حياء ، كما في الأبيات الغزلية التالية التي قدم بها لإحدى هجائياته : (٣٩)

أخالدَ عاد وعدُكمُ خلابا ومَنّيت المواعدَ والكذابا
فما باليْت ليلتنا بنجد ودمعُ العَين ينحدر انسكابا
لذكرك حين فَوّزت المطايا على شَرَكٍ تخالُ به سبابا

---

(٣٩) شرح *ديوان جرير* ، ٨٠ .

أخالدَ كان أهلُك لي صديقـا فقد أمسـوا لحُبّكمُ حرابا
بنفسي مَنْ أزورُ فـلا أراهُ ويضْربُ دونَه الخدمُ الحجابا
أخالدَ لو سـألت عَلمْت أنـي لقيتُ بحبّك العجَبَ العُجابا

إن الثقافة الاجتماعية الَتيَ قبلَت دموع جرير وبكاءه صَبابة أمام محبوبته، لا تقبل دموعه وبكاءه حزنا على زوجته بعد وفاتها ؛ لأنه في الحالة الأولى متبع ، وفي الثانية مبتدع ، بسبب اختلاف وضع (خالدة)في الحالتين ، فهي في الأولى معشوقة ، وفي الثانية زوجة . وفرق بين الحالتين؛ فالبكاء في الحالة الأولى تكمل به صورة الرجل العاشق، ويستكمل به الحب مداه ، حتى وإن كان بكاء شعريا ادعائيا ،أو بلغة أخرى ، بكاء رومانسيا، وإعلانه دليل التناهي في الحب والهيام بالحبيبة . أما البكاء في الحالة الثانية ، فتنقص به صورة الرجل الزوج لأنه بكاء حقيقي لا رومانسي ، وهو بكاء إثر ميت بدافع الوفاء فقط . لهذا السبب رأينا جريرا مترددا في بداية قصيدته بين البكاء وعدمه ؛ لأنه لا ينسج على مثال سابق ، ولا يطرق جادة مطروقة عرفها الشعراء وتآلف معها السامعون ، ولكنه يسن سنة جديدة للبكاء من ذكرى الحبيب ومنزله، حزنا لاصبابة ؛ فبدأ رثاءه على استحياء ، وجعله مقدمة لقصيدة ، لاقصيدة مستقلة، وهوما لم تجر به عادة الشعراء ، إذ كانوا يقدمون لقصائدهم غالبا بالغزل أو الوصف لا الرثاء ثم يخلصونَ إلى غرض القصيدة الذي أنشئت من أجله . وقد بدا جرير في هذه القصيدة بتنازعه باديته وحاضرته ، البادية بطباعها الخشنة الجافة ، والحاضرة التي بدت بمجتمعاتها الجديدة تروّض هذه الطباع الجامحة والعواطف الجافة . فهو كما تؤكد كلمة (لولا) استحيا أن يعاود البكاء على (أم حزرة) وأن يزور قبرها ، ولكنه في الوقت نفسه لم يرده الحياء عن إعلان رغبته في ذلك ، فاتجه إليها يخاطبها مباشرة وكأنها قريبة تسمعه ، فيعتذر إليها عن عدم زيارة قبرها . وقد استمر يناجيها بلغة رقيقة هادئة كما لو كانت أمامه ، في أكثر أبيات القصيدة ، مما يدل على إحساس قوي بها ، وإحساس أقوى بفقدها . ونجد تفسيرا لذلك الإحساس في سيرته الهينة اللينة ، فقد كان ـ كما يقول شوقي ضيف : « دينا عفيفا طاهر النفس ، وكانت علاقته بزوجاته علاقة ود ومحبة ، وكنّ يبادلنه ودا بود . . . وكانت نفسه لينة رقيقة لا

تشوبها شوائب التمرد.»[٤٠] ولهذا نراه وفيا لأم حزرة على الرغم من مرور زمن على وفاتها، فيخاطبها مباشرة كعادته مصارحا إياها بلوعته وحسرته على فراقها حين تركته مع أطفاله الصغار بعد أن تقدمت به السن، فيقول:

ولَّهْت قلبي إذْ عَلَتْني كَبْرةٌ وذوو التمائم من بنيك صغار

ويدل هذا البَيت، وأبيات الغزل التي أسلفنا على أن جريرا كان متَعلقا بزوجته أشد ما يكون التعلق قبل زواجه منها وبعده. وإشارته في هذا البيت إلى كبر سنه وصغر سن أطفاله يُومِئُ إلى فارق السن بينهما، مما يطرح سببا من أسباب هذا التعلق، إلى جانب ما تتمتع به هَذه المرأة الكريمة من صفات كريمة راح يعددها بقوله:

نعْم القرينُ وكنت علْقَ مَضنّة وَارَىْ بنَعْف بُليّةَ الأحجار
عَمرَتْ مكرَّمةَ المسَاكَ وفارقت ما مَسّهَا صَلَفٌ ولا إقتار
كانَت مكرمة العَشير ولم يكن يخشى غوائلَ أمّ حَزْرةَ جار
ولقد أراك كُسيت أجمل منظر ومع الجمال سكينةٌ ووقار
والريحُ طيبةٌ إذا استقبلتُها والعرضُ لا دَنسٌ ولا خوّار
وإذا سَرَيْتُ رأيتُ نارَكَ نَوَّرَتْ وجهًا أغرَّ يَزينَه الإسفار
كانت إذا هجر الحليلُ فراشَها خُزنَ الحديثُ وعَفَّتْ الأسرار

ثم أمضى بقية الأبيات هادئ النفس، مؤمنا بمصير الإنسان، داعيا لها بالرحمة والغفران جزاءَ ما كانت عليه من طيب الشمائل والأخلاق.

وفي رأينا أن جريرا رثى زوجته أحسن ما يكون الرثاء، وكشف عن عاطفة جياشة لم يخفف من جذوتها مرور الزمن، واستطاع أن يؤسس، بحق، لهذا الاتجاه الرثائي في الشعر العربي على الرغم من أنه عاش في عصر يعد فيه رثاء الزوجة خروجا على سياق الثقافة الاجتماعية المتوارثة.

الفرزدق وحدراء

لم يتأثر الفرزدق بالمحيط الحضري ولا المحيط الديني الذي كان يميز البصرة، مركز

(٤٠) شوقي ضيف، *العصر الإسلامي* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٢م)، ٢٨٦، ٢٨٩ بقليل من التصرف.

الحركة الثقافية في العصر الأموي ، بل ظل بدويا متعصبا لعاداته وتقاليده البدوية المبنية على العصبية والخشونة ، فانعكس ذلك على أخلاقه وحياته ولغته وشعره . فوقف بسبب ذلك على طرف مناقض لجرير في كل شيء ؛ في حياته وطباعه وشعره ؛ فتديُّنُ جرير ، وليونة جانبه ، وسماحة أخلاقه ، ورقة طباعه مع النساء ، يقابلها عند الفرزدق جفاء الطبع ، وخشونة الجانب ، وصلابة الشكيمة التي تسربت إليه من الجاهلية ، وقد أشار إلى ذلك من كتبوا عنه ؛ فقال إيليّا حاوي في مقدمة ديوانه « إنه كان ما يزال يحن إلى عوالم الجاهلية ، يحيي آياتها وثاراتها ، ويتغنى بأمجادها ، ويفعل أفعالها ؛ يجير على قبر أبيه غالب ، ومن كان يحتمي به كان يحميه ، وينحر النياق على القبور على عادة الجاهليين . »[٤١] وأخلاق الفرزدق من هذه الناحية ـ كما يقول شوقي ضيف ـ « تتصل بالأخلاق الجاهلية وبكل ما ينطوي في هذه الأخلاق من إثم ، فقد عرف بفسقه وشربه الخمر التي حرمها الإسلام ، وأيضا بكل ما ينطوي في هذه الأخلاق من عصبية وغلظة . »[٤٢] وقال عمر فروخ : « وكان في طبع الفرزدق جفاء حمل إلى شعره شيئا من الخشونة والصلابة . »[٤٣] أما بالنسبة لعلاقته بالمرأة فقد كان كما يقول ممدوح حقي « فاحشا قاسيا على المرأة لايفهم روحها ، ولايرى فيها إلا متعة مادية ، ولذا كثر عدد زوجاته ومن تسرى بهن . . . وكان سيئ العشرة لأزواجه ، فاشتد كرههن له وبغضهن ، ونشز عنه بعضهن كما احتمله بعضهن على مضض . »[٤٤] وكان بسبب هذه الطباع الخشنة مفرّكا من النساء ؛ فقد غضبت منه ابنة عمه النوار ونازعته حتى طلقها ، ونشزت عنه رهيمة النمرية ، وطيبة المجاشعية فطلقهما ، وماتت حدراء الشيبانية مغاضبة له بعيدة عنه . وكان على الرغم من ذلك يتفاخر في شعره بفسقه وعلاقاته مع النساء ، وزياراته لدور القيان .

---

(٤١) شرح *ديوان الفرزدق* ، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا حاوي (بيروت : دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، ١٩٨٣م)، ٩ .

(٤٢) ضيف ، *العصر الإسلامي*، ٢٦٧ .

(٤٣) عمر فروخ ، *تاريخ الأدب العربي*، ط٥ (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٤م)، ١ : ٦٥١ .

(٤٤) ممدوح حقي ، *الفرزدق* ، سلسلة نوابغ الفكر العربي، ط٥ (القاهرة : دار المعارف ، د. ت .)، ٢٢ .

التجربة التي سوف نقف عندها مشابهة لتجربة جرير ، وهي وفاة زوجة الفرزدق ، حدراء الشيبانية التي طالما شبّبَ بها في شعره ، وكانت أثيرة عنده ، ولكنها كانت تنفر منه لخشونته وغلظته . ويؤكد لنا شعره أن علاقاته النسائية بعامة كانت علاقات منفعة فقط ، وبما أن المنفعة من المرأة مرتبطة بحياتها ، فإن علاقته بها تنقطع بوفاتها مهما كانت أثيرة عنده . ويؤكد هذا الرأي قوله عن حدراء حين كانت المنفعة دافعَه : (٤٥)

لو أنّ حدراءَ تجزيني كما زَعَمَتْ أنْ سوْف تفعل من بَذْل وإكرام
لكنتُ أطوعَ من ذي حَلقة جُعلَتْ في الأنف دَلّ بتَقْواد وتَرْسام

وهو في هذين البيتين يؤكد بأن حَدراء لو صدقت بوعدها لكانَ أكثر خضوعا لها من جمل يقتاد من حلقة جعلت في أنفه ، و هذه المقايضة المبنية على المنفعة ، لم تقع ؛ لأن تنفيذها كان مشروطا بلفظة (لو) التي تدل على امتناع شيء لامتناع شيء آخر غيره . أما حين تنقطع المنفعة ، ويكون الموقف موقف وفاء فقط ، فإن الفرزدق يرجع إلى جبلته الجافية تجاه المرأة ويعلن احتقاره لكل النساء بصوت عال . وهذا يتضح جليا في قوله يذكر حدراء بعد وفاتها من قصيدة قصيرة لم تتجاوز اثني عشر بيتا : (٤٦)

يقولون زرْحدراءَ والتّرْبُ دونها وكيف بشـــيء وَصْلُه قد تقطّعا
ولستُ وإنْ عـــزّتْ عليّ بزائر ترابا على مرسومة قد تضعضعا
وأهونُ مفقود إذا الموت نالـــه على المرء من أصحابه من تقنّعا
وأهونُ رزء لامرىء غير عـاجز رزيّةُ مرتَجٍّ الروادف أفرَعـــا

والفرزدق فيما قدمنا من أبيات يكشف عن نظرة أحادية تجاه المرأة لا ترى فيها سوى مصدر للمتعة ، ويهمل ما عدا ذلك من الجوانب الأخرى . فلم تعد حدراء في نظره بعد وفاتها كما كانت في حياتها ، بل إن وفاتها دفعته للكشف عن احتقاره للمرأة بعامة ، وعدها أهون مفقود يناله الموت ، وعد رزئها أهون رزء يتعرض له امرؤ غير عاجز . ونظرة الفرزدق الخشنة تجاه المرأة لم نجدها عند جرير الذي كشف في قصيدته عن حبه ووفائه لأم حزرة وراح يعدد محاسنها وفضائلها وشمائلها الكريمة ، ويؤكد أن امتناعه عن زيارة قبرها

(٤٥) شرح *ديوان الفرزدق* ، ٢ : ٣٨٧ .
(٤٦) شرح *ديوان الفرزدق* ، ٢ : ٧٦ .

والبكاء عليها كان بسبب الحياء . أما الفرزدق ، فحين عرف بوفاة حدراء بعد وصوله إلى ديارها ، فإن الحياء لم يمنعه من أن يعلن حسرته وندمه ، لاعلى وفاتها ، بل على مجيئه إلى ديارها ؛ لأنه (لو) علم ذلك لأمر حادي إبله بالعودة من حيث أتى ، فحسرته جاءت من امتناع عودته لامتناع علمه بوفاتها قبل مجيئه كما تؤكد لفظة (لو) في الأبيات التالية :

عجبتُ لحادينا المُقَحِّم سيره بنا مُزْجفات من كلال وظُلَّعا
ليدنيننا ممّنْ إليـنا لقـاؤه حبيبٌ ومَنْ دار أردْنا لتجْمَعا
ولو نعلمُ العلمَ الذي من أمامنا لكرَّ بنَا الحاديَ الركابَ فأسرعا

الفرزدق يؤكد في هذه الأبيات ما قلناه آنفا عن علاقاته النسائية المبنية على المنفعة والنظرة الحسية ، فهو يشير في البيت الثاني إلى رغبته في لقاء حدراء والذهاب إلى ديارها ، قبل علمه بوفاتها ، ولكنه في البيت التالي يأسف لمجيئه إلى ديارها بعد موتها .

ومما يكشف أكثر عن الجانب النفعي الحسي في نظرته إلى المرأة أنه حين ماتت له امرأة بجُمْع (أي بولد في بطنها) شبهها بغمد سلاح غير مأسوف على فقده لولا الدماء الدارمية التي في جوفه . وقد ورد ذلك في بيتين ذكرهما المبرد في *الكامل* ولم يردا في ديوانه ، وقد قدم لهما المبرد بقوله : وماتت امرأة للفرزدق بجُمْع ومعنى جمع ولدها في بطنها ، فقال : [٤٧]

وغمْد سلاح قد رُزئتَ فلمْ أنُحْ عليه ولم أبعثْ عليه البواكيا
وفي جَوْفه منْ دارمٍ ذو حفيظـة لو أن المنايا أنْسـأته لياليا

إن الفرزدق لم يرث كما رثى جرير ، ولكنه هجا النساء جميعا ، ولم يخف احتقاره لهن . وكان بإمكانه أن يمسك عن ذكر حدراء كما أمسك كثير من الشعراء عن رثاء زوجاتهم، وكما أمسك هو عن ذكر ابنة عمه النوار بعد وفاتها ، حتى قيل إنها لما توفيت «قاموا ينوحون عليها بشعر جرير .»[٤٨] ولولا أن هذه الأبيات جاءت عند بعض الباحثين

(٤٧) المبرد ، *الكامل في اللغة والأدب* (بيروت : مكتبة المعارف ، الرياض : مكتبة النصر ، د. ت .) ، ٢ : ٣٢١ .

(٤٨) ابن سلام الجمحي ، *طبقات فحول الشعراء* ، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة : مطبعة المدني ، د .ت .) ، ١ : ٤٥٦ . وابن سلام يروي هذا عن بشار بن برد .

مدرجة في مجال الرثاء لما أوردناها هنا . (٤٩)

هذان الشاعران ، جرير والفرزدق ، صورتان متناقضتان من صور المجتمع العربي في العصر الأموي الذي بدأت تظهر فيه آثار الامتزاج بين العرب والشعوب الأخرى ؛ فكلاهما عاش حياته بين البادية والبصرة ، وكلاهما وفد على خلفاء بني أمية في دمشق ، ورأى مظاهر الحضارة تحيط به من كل جانب . وفي رأينا أن طبع جرير ساعد تلك المؤثرات على التسلل إلى نفسه ، فجاء موقفه انعكاسا لذلك الوضع ، فرثى الزوجة الصالحة ، والأم الحانية ؛ أما الفرزدق ، فقد أغلق بابه دون تلك المؤثرات الحضرية ، و ظل محافظا على صورة البدوي وطباع الصحراء الجافة القاسية ، فجاءت آراؤه حول المرأة متسمة بهذه الصفات ، حتى إنه سخر من رثاء جرير ووفائه لزوجته ، ورغبته في زيارتها بعد موتها ، وقد رأى في ذلك فضيحة لها في قبرها ، فقال : (٥٠)

إن الزيارةَ في الحياة ، ولا أرى ... ميتا إذا دَخَلَ القبـورَ يزار
وَرَثَيْتَها وفضَحْتها في قبرها ... ما مثلَ ذلك تفعل الأخيار

هذا الموقف المتعصب ضد المرأة يتناقض تماما مع افتخار الفرزدق الدائم وتغنيه المتكرر بجده صعصعة وما كان يقوم به من افتداء للموؤودات في الجاهلية ودفعه الأموال لمن يهم بوأد ابنته . (٥١)

الوليد بن يزيد وسلمى بنت سعيد

نجد في العصر الأموي صورة أخرى للزوجة المرثية ، هي الزوجة الحبيبة ، وهذه الصورة لم تأت من البادية ولا من البصرة ، بل جاءت من قصر الخلافة في دمشق ، حيث يعيش الوليد بن يزيد الخليفة الأموي الذي عرف باللهو والمجون والاستهتار بجميع الأعراف والقيم الدينية والاجتماعية مما أدى في النهاية إلى قتله . وكان يحب سلمى بنت سعيد بن

(٤٩) ذكرها المبرد في *الكامل* أثناء حديثه عن الرثاء ، وقال : « قال الفرزدق يرثي حدراء الشيبانية . » انظر : *الكامل* ، ٢ : ٣٢١ . وأوردها عمر الأسعد في *ديوان رثاء الأزواج* ، ٣٣ .

(٥٠) شرح *ديوان الفرزدق* ، ١ : ٦٠٤ .

(٥١) ضيف ، *العصر الإسلامي* ، ٢٦٦ .

خالد حبا شديدا ظهر في غالب شعره الذي جمعه وحققه حسين عطوان، وقد خطبها مرارا فرده والدها ، ولما ولي الخلافة خطبها ، فزفت إليه ، فمكثت معه أياماً ، ثم ماتت ، فحزن عليها حزنا شديدا . ولم يصلنا مما قال فيها بعد موتها إلا تسعة أبيات تنم عن حسرة بالغة على فقدها . وقد وردت هذه الأبيات في ثلاث مقطوعات ، الأولى خمسة: (٥٢)

ألّا تعلما سلمى أقامت ... مُضَمَّنة من الصحراء لحدا
لعَمْرُكَ يا وليد لقد أجنّوا ... بها حَسَبا ومكرمة ومَجْدا
ووجها كان يَقْصُرُ عن مداه ... شعاعُ الشمس أهلٌ أن يُفَدّى
فلم أرَ ميّتا أبْكَى لعين ... وأكثرَ جازعا وأجلّ فقدا
وأجدرَ أن تكونَ لديه مَلْكا ... يُريكَ جلادة ويُسِرّ وَجْدا

والثانية بيت واحد، هو : (٥٣)

ألم تعلما سلمى أقامت بمَهْمَه ... مُضَمّنة قبرا من الأرض أُلْحِدا

أما الثالثة فثلاثة أبيات، وهي : (٥٤)

يا سلمَ كنت كَجَنّة قد أطْمَعَت ... أفنانُها دان جناها موضع
أربابُها شفقا عليها نومُهم ... تحليلُ موضعها ولمّا يهجعوا
حتى إذا فَسَحَ الربيع ظنونَهم ... نثر الخريفُ ثمارَها فتصدعوا

ولا نعتقد أن هذا كل ماقاله الوليد بن يزيد في رثاء زوجته سلمى ، لأن شعره ضاع أكثره ، ولم يحفظ منه إلا النزر اليسير ، وكان متفرقا في كثير من المصادر القديمة ، وهو ما قام بجمعه حسين عطوان .

إننا لانجد في هذه الأبيات المتفرقة للوليد بن يزيد إلا صورة الحبيبة ؛ لأنه في الحقيقة يرثي حبيبة لازوجة ، فجذوة الحب التي عانى من حرارتها لم يمهله القدر لإطفائها بعد زواجه منها ؛ لوفاتها بعد أيام من بنائه بها ، لهذا فإن هذه الأبيات تحمل لوعة عاشق يائس ، لا أنّة زوج مفجوع . وقد بدا الشاعر في المقطوعة الأولى وكأنه غير مصدق بموت سلمى ،

---

(٥٢) شعر *الوليد بن يزيد* ، جمعه وحققه حسين عطوان (عمان : مكتبة الأقصى ، ١٩٧٩م)، ٤٠ .

(٥٣) شعر *الوليد بن يزيد* ، ٤١ .

(٥٤) شعر *الوليد بن يزيد* ، ٧٥ .

فدفعته مفاجأة الموت وهو في قمة سعادته مع حبيبة طال انتظاره للقائها ، إلى سؤال رفيقيه سؤالا هو يعلم إجابته ، وكأنه يريد أن يسمع منهماً غير ما يؤكده الواقع ، ولكنه يثوب إلى واقعه الأليم بعد ذلك الذهول ، فيخاطب نفسه معزيا إياها بترديد ما تتميز به سلمى عن بقية النساء من صفات حميدة ، وأخلاق كريمة .

وفي المقطوعة الثانية بيت واحد فقط ، ونعتقد أنه مبتور من قصيدة ، وفيه يبدو الوليد مازال غير مصدق بوفاة سلمى ، ولهذا نراه يصر على توجيه السؤال نفسه إلى رفيقيه مستعظما المآل الذي آلت إليه سلمى وكأن الأرض كلها تحولت إلى قبر لها .

أما المقطوعة الثالثة فنرى فيها الحسرة الشديدة على فراق سلمى ، فقد تأكد الوليد من موتها فناداها نداء من يعرف أنها لن تجيب ، فاستعمل (ياء) النداء لما وضعت له أصلا وهو نداء البعيد ، وكأنها إشارة إلى رجوعه إلى الواقع ، وتسليمه بما حدث ، والترخيم في (سلمى) له دلالة أخرى يمكن ربطها بالموت بعد رجوع الشاعر إلى الواقع ، فالنقصانُ الذي أصاب عمر سلمى وهي في ريعان شبابها ، فلم يكتمل ، أصاب اسمها أيضا ، فلم يكتمل وانقطع حين ندائها ، وهذا تكامل بين الواقع واللغة جاء نتيجة عفوية لإحساس الشاعر القوي بفقد زوجته الشابة التي كان يراها جنة زاهية بثمارها وأفنانها ، ولكن الخريف داهمها قبل الأوان فتبددت آمال أصحابها . وهذا التشبيه الذي ساقه الوليد بن يزيد يكشف عن عمق الجرح الذي أصابه ، والحسرة التي أحسها حين رأى آماله التي انتظرها سنين طويلة يبددها الموت وهو لا يستطيع فعل أي شيء لإنقاذها . ودافعه الذي لاشك فيه هو حب غير عادي لامرأة يراها غير عادية .

والفرق الذي نراه بين جرير والوليد بن يزيد ، أن الأول قضى مع خالدة سنوات طويلة ، وأنجب منها أطفالا ، وتوفيت وجرير كبير في السن ، فكان يرثي فيها الحبيبة ، والزوجة الصالحة ، ورفيقة دربه الوفية ، وأم أطفاله الصغار ، وقد ظهرت كل هذه الجوانب في رثائه إياها . أما الوليد بن يزيد فلم يقع له شيء من ذلك سوى الحب الذي أشرنا إليه ، وكان هو دافعه الحقيقي ، فلم نر في هذه الأبيات القليلة إلا الحبيبة ذات الصفات الكريمة .

وإلى جانب هذا الحب ، وهو الدافع الأساس لهذا الرثاء ، فإنه لابد أن نضع في حسباننا حياة الوليد الخاصة التي كان يعيشها قبل الخلافة وبعدها والتي أشرنا إليها آنفا ،

لهذا فالثقافة الاجتماعية السائدة آنذاك حول رثاء الزوجة ، والتي أملت على الفرزدق شعره وموقفه الذي رأيناه، لم تكن لتعوق رجلا مثل الوليد عاش في قصر الخلافة أميرا ووليا للعهد ثم خليفة ، محاطا بكل وسائل اللهو والملذات والترف .

إن آثار الانفتاح الاجتماعي التي رأينا بداياتها تظهر في رثائيات جرير والوليد بن يزيد في العصر الأموي نراها تبرز في العصر العباسي بشكل أوضح عند بعض الشعراء الذين اختلفت ظروفهم ودوافعهم ونظرتهم تجاه الزوجة المرثية ، فجاءت مراثيهم لزوجاتهم بقصائد مستقلة قيلت أساسا بقصد الرثاء ، لاكما رأينا في رثاء (أم حزرة) الذي جاء مقدمة لقصيدة طويلة قيلت أساسا لهجاء الفرزدق ، وكأنه اختبار للثقافة الاجتماعية بسلوك مخالف للنمط الذي اعتادت عليه .

العصر العباسي

ملامح المجتمع الجديد المنفتح في العصر العباسي لم تستطع أن تلغي نظرة الرجل المتعصبة ضد المرأة ، ولكنها خففت قليلا ، والامتزاج الاجتماعي الذي رأيناه بين العرب والفرس كان وراء هذا التخفيف . في هذا العصر بقي بعض الشعراء متمسكين بالنظرة الجاهلية التي ترى أن القبر هو خير بعل للمرأة ، وأنه أفضل صهر للرجل . وقد أوردنا في بداية هذا البحث بعض الشواهد الشعرية لهذه النظرة عند البحتري وابن الرومي وأبي العلاء .

في هذا العصر أربعة شعراء فقط رثوا زوجاتهم ، هم محمد بن عبد الملك الزيات ، ومسلم بن الوليد ، وابن الرومي ، والطغرائي . والشاعر لا يرثي زوجته متجاوزا ثقافته الاجتماعية إلا إذا أحس بفقدها إحساسا يدفعه إلى تجاوز هذه الثقافة ، وسوف نبحث عن تفسير لذلك الإحساس عند كل شاعر على حدة من خلال ما لدينا من نصوص ، وذلك في الفقرة التالية .

محمد بن عبد الملك الزيات

يقول جميل سعيد عن الزيات في مقدمة *ديوانه* : « إنه تاجر ، عالم ، أديب ،

كاتب، شاعر، وزير مدبر حازم. ومع هذه الصفات الكثيرة التي قلّ أن تجتمع في فرد واحد، فإنه كان علما في كل منها.»[٥٥] عاش ابن الزيات في العصر الذهبي للدولة العباسية، فكان أحد مثقفيها ورجالاتها المعدودين الذين كان لهم أثر في بنائها وتوطيد دعائمها أثناء حكم ثلاثة من خلفائها، المعتصم والواثق والمتوكل الذين وزر لهم. وقد ولد في عائلة فارسية غنية فعاش حياته في جو غامر من السعادة واللهو والترف، وقاده طموحه بعد ذلك إلى قصور الخلفاء تاجرا ثم وزيرا. هذه الحياة الخاصة الحافلة بالثراء والثقافة والسلطة حررته من قيود الثقافة الاجتماعية العامة المتوارثة والتي كانت عاملا قويا في سكوت كثير من الشعراء عن رثاء زوجاتهم. فحين توفيت زوجته أم عمر وتركت طفلا ذا ثماني سنوات قال قصيدة مؤثرة أشاد بها كثير من القدماء والمحدثين، فقال عنها ابن رشيق في *العمدة*: «ومن جيد ما رثي به النساء، وأشجاه، وأشده تأثيرا في القلب وإثارة للحزن قول محمد بن عبد الملك في أم ولده.»[٥٦] وقال شوقي ضيف: «ومن أروع ما رثي به الزوجات قول محمد بن عبد الملك الزيات في زوجته.»[٥٧] ثم أورد جزءا من القصيدة. وقد وردت القصيدة في *الديوان* الذي حققه جميل سعيد في ثمانية عشر بيتا، وأوردها المبرد في *التعازي والمراثي* في تسعة عشر بيتا، بزيادة بيت على رواية *الديوان*، وقد ميزته بخط مختلف، والقصيدة هي:[٥٨]

ألا مَنْ رأى الطفـــلَ المفـــارقَ أمَّه بَعيدَ الكَرى عيناه تنســــكبان
رأى كلَّ أم وابنَها غــــيرَ أمـــِّه يبيتان تحـــت الليل يَنْتَـــحيان
(يُرِنُّ بصـــوت فَضَّ قلبي نشيجُه وســحٍّ دمـــوع ثَرَّة الهَمَلان)
وبات وحيـــدا في الفراش تُجِـــنُّه بلابلُ قلب دائم الخفَقَـــان
ألا إنّ سَجْلا واحـــدا إن هَرَقْتُه من الدمع أَو سَجْلين قد شـــفياني

(٥٥) *ديوان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات*، شرح وتحقيق جميل سعيد (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤١٠هـ)، ١٤.
(٥٦) ابن رشيق القيرواني، *العمدة*، ٢: ١٥٦.
(٥٧) شوق ضيف، *الرثاء*، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، ٢٦.
(٥٨) *ديوان ابن الزيات*، ١٣٨.

فلا تَلْحَيَاني إنْ بَكَيْـــــــتُ فإنما أداوي بهذا الدمع ما تريـــــان
وإنَّ مكانـــا في الثرى خُطَّ لَحـــدُه لمن كان في قلبي بكل مكـــان
أحقُّ مكـــان بالزيارة والهـــوى فهل أنتما إن عُجْتُ منتظـــران
فَهَبْني عَزَمْتُ الصَّبر عنها لأننـــي جليدٌ فمن بالصبر لابن ثمـــان
ضعيف القُوَى لا يطلب الأجرَ حسبة ولا يَأتَسي بالناس في الحـــدَثان
ألا من أُمَنّيـــه المُنى وأُعـــدُّه لعـــثرة أيامي وصَرْف زماني
ألا من إذا ما جئت أكرمَ مجلســـي وإنْ غبـــت عنه حاطني وكفاني
فلمْ أرَ كالأقـــدار كيـــف تصيبني ولا مثلَ هذا الدهـــر كيف رماني
ولا مثلَ أيام فُجعـــتُ بعهـــدها ولا مثلَ يوم بعد ذاك دعـــاني
أعَيْنَيّ إن لم تسَـــعدا اليوم عَبْرتي فبئـــس إذنْ ما فـــي غد تَعْدَاني
أعَيْنَيّ إن أنعَ الســـرورَ وأهلـــه وعهدَ الرضا عندي فقد نَعَّـــياني
أعَيْنَيّ إن أبْك البشاشـــة والصبا فقد أذنا مـــني وقد بكـــياني
ألا إنّ مَيْتا لـــم أزرْه لشـــدّ ما تَلَبّـــس من قلـــبي به وعناني
ألا إن ميتا لـــم أزره لَعـــزّما تضَمَّن منـــه في الثرى الكفـــنان

يستهل ابن الزيات قصيدته بعاطفة جياشة تجاه الموجود ، وليس تجاه المفقود ؛ ففقدان الزوجة لم يثر عواطفه إثارة مباشرة ، ولم يحس بفقدها زوجة كما أحس بفقدها أمّا لطفله ذي السنوات الثماني الذي بات وحيدا في فراشه يبكي بصوت فضّ قلب والده بنشيجه ودموعه ، وهو لا يعلم شيئا عن حقيقة الموت الذي خطف والدته ، وترك للأطفال الآخرين أمهاتهم . وفي رأينا أن الطفل هو محور القصيدة ، و محور العواطف والإحساس لدى الشاعر ، ولولا هذا المنظر المحزن لذلك الطفل لربما لم تكن هذه القصيدة ؛ فقد جاء البيت الأول إعلانا واضحا قويا لمأساة ابن الزيات وهمه الأول ، مستفتحا إياه بحرف التنبيه (ألا) الذي يدل على تحقق ما بعده ، كما يقول ابن هشام . [٥٩] ومأساة ابن الزيات تتمثل ، في الحقيقة ، فيمن بقي حيا ، لا فيمن قضى ميتا ، لهذا ، ركز في الأبيات الأربعة الأولى

(٥٩) جمال الدين بن هشام ، مغني *اللبيب* ، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، ط٥ (بيروت : دار الفكر ، ١٩٧٩م) ، ٩٥ .

على وصف حالة الطفل أثناء الليل حينما يكون الطفل في أشد الحاجة إلى والدته ، ويكون الأب في أشد الحاجة إلى الراحة . والاستفتاح بالطفل في حقيقة الأمر إنما هو استفتاح بالهم الأكبر الذي كان يشغل بال الشاعر بعد الوفاة ، ونستطيع أن ندرك ذلك إذا ما قارناه باستفتاح جرير لرثائه زوجته ؛ فقد استهل جرير قصيدته ـ كما رأينا ـ بتوجيه الخطاب إلى أم حزرة مباشرة وذكر اسمها في قصيدته ثلاث مرات مما يدل على حضورها في ذهنه حضورا قويا جعله يستمر في مخاطبتها ومناجاتها ، ويستعذب ترديد اسمها ، ولم يذكر الأبناء إلا في الشطر الثاني من البيت الرابع . أما ابن الزيات فقد غابت أم عمر عن قصيدته ؛ فلم يذكرها بالاسم ، ولم يشر إليها إلا بضمير الغائب ، و طلب من رفيقيه عدم لومه على إسرافه بالبكاء لأنه يداوي بدموعه ما يريانه من حالة الطفل التي وصفها . فجاءت القصيدة منذ بدايتها وكأنها رثاء للحي أكثر منها للميت ؛ فحضور الزوج والطفل طغى على حضور الزوجة التي لم يخصص الشاعر لصفاتها سوى بيت واحد هو قوله :

ألا منْ إذا ما جئتُ أكرمَ منزلي وإنْ غبتُ عنه حاطني وكَفَاني

أما سائر الأبيات فهي إما وصف لحالة الطفل الذي فقد أمه ، أو وصف لحالة الزوج الذي فقد عهد الرضا والسرور .

إننا لنرى في هذه القصيدة عاطفة الأب تجاه ابنه أكثر مما نرى عاطفة الزوج تجاه زوجته ، وهذا لايعني أننا ننفي جزع الشاعر على زوجته ، ولكننا نربطه بجزعه على حالة طفله الذي نعده الأساس في مصيبة الشاعر ، ويمكن أن نقول إن حزن الشاعر جاء من مصدرين متلازمين ، وفاة الزوجة ، وحالة الطفل بعدها ، فجاء حزنه حزنا مضاعفا . وما تكرار حرف التنبيه (ألا) ست مرات في القصيدة إلا رغبة في اجتذاب اهتمام الآخرين والتركيز على حالته وحالة طفله بعد وفاة زوجته ، فكأنه كان يحس بانصراف الآخرين عنه وعدم اهتمامهم بما يعانيه بعد فقد زوجته فأراد أن يؤكد لهم صدق معاناته وذلك بتنبيههم كلما أوشكوا على الانصراف عنه .

ننتهي من ذلك كله إلى أن هذه القصيدة ليست رثاء خالصا للزوجة المتوفاة ، بل هي بكاء وحسرة على تلاشي حياة سعيدة كانت تكفلها للشاعر وطفله زوجة أمينة مخلصة . ونصيب الطفل من عاطفة الشاعر أكبر وأبرز من نصيب الزوجة . يؤكد ذلك أن الشاعر لم

يذكر زوجته مستقلة إلا في مقطوعة من بيتين ، قالهما ردا على بعض أصدقائه الذين كانوا يحثونه على زيارة قبرها، هما : (٦٠)

يقولُ لِيَ الخلاّنُ لو زرتَ قبرَهـا فقلت وهل غيرُ الفؤاد لها قـبر
على حين لَم أُحدث فأجهل قدرها ولـم أبلغْ السنَّ التي معها الـصبر

ابن الرومي

لانجد في ديوان ابن الرومي سوى أربع مقطوعات في رثاء زوجته، مجموع أبياتها ثلاثة عشر بيتا ، وهذا العدد أقل بكثير مما يتوقعه أي قارئ من شاعر مثل ابن الرومي كان للموت أثر فاعل في تشكيل حياته وشخصيته ؛ فقد قصّ الموت جناحه بموت أخيه الذي كان سندا وعونا له على الحياة ، ثم صدع الموت قلبه بأبنائه صدعا لم يجبر طوال حياته، وتوفيت أمه الحنون التي كان ــ كما يقول ــ يشتكي إليها ما ينوبه فتفرج عنه كل هم وغم ،كما توفيت خالته وخاله ، وقد رثاهم جميعا بقصائد وليس بمقطوعات . ولو لم يُشَر في *الديوان* إلى أنه قال هذه المقطوعات الأربع في رثاء زوجته ، لما استطعنا تمييز ذلك ؛ لعدم وجود أي إشارة تدل على علاقة الشاعر بمن يرثيه ، والمقطوعات هي : الأولى : (٦١)

عَيْنَيَّ شُحَّا ولا تَسـحا جَلَّ مصابي عن البـكاء
تركُكُما الداء مُسـتَكنّا أصدقُ عن صحـة الوفاء
إنّ الأسى والبكاء قدْمـَا أمران كالـداء والدواء
وما ابتغاءُ الـدَواء إلاّ بُغيا سـبيل إلى البقاء
ومبتغي العيشِ بعدَ خِـلٍّ كاذبُه خَلّةَ الصـفاء

الثانية : (٦٢)

سلوت شبابي والرضاعَ كليهما فكيف تراني ساليا ما سـواهما
وما أحدث العصران شيئا نَكِرته هما الواهبان السالبان هماهمـا

(٦٠) *ديوان ابن الزيات* ، ١٧٣ .

(٦١) *ديوان ابن الرومي* ، ١ : ٥٧ .

(٦٢) *ديوان ابن الرومي* ، ١ : ١١٢ .

والثالثة : (٦٣)

أَعَيْنَيّ جودا بالدموع لفقدهـــا فما بعدها دُخْرٌ من الدمع مذخور
نصيُبكما منها الذي فات فابكيا فأمّا نصيبُ القلب منها فمـــوفور

والرابعة : (٦٤)

عَيْنَيّ جـــــودا على حبيبكما بالسَّجْل فالسَّجْل من صبيبكما
لاتجمـــــــدا لاتَ حين معذرة ما لم تذوبا لمســـــــــتَذيبكما
فاســــتغزرا درةَ السؤال على بَدْر كَمَا بلّ من قضــــيبكَما
هــــذا فؤادي والرزء رزؤكما تبكّي له عين مســــــتثيبكما
فاســــتنكفا أن يكون غيركما أبْكَى لما فات من نصيـــبكما

يبدو من بكاء ابن الرومي على زوجته أنها كانت آخر من مات من آل بيته ، وأنها لم تترك أطفالا بعد موتها ، فلم يترك فقدها أثرا قويا في نفسه التي أصبحت في غشاء من نبال الموت ، وقد جاء موتها بعد أن تمكن الحزن من ابن الرومي ، وأصبح سمة في حياته بانت في كثير من قصائده . فلم يبق لديه نفَسٌ طويل للبكاء ، ولم يزده فقدها خبرة بالحياة ومصائبها فقد مرنت نفسه على ما أحدث العصران ، وقد بدا في هذه الأبيات مضطربا مترددا بين البكاء وعدمه ، فهو حينا يطلب من عينيه عدم البكاء ، والاحتفاظ بالداء مستكنا لأنه أصدق في التعبير عن الوفاء للميت . وحينا يطلب منهما أن يجودا بالدموع لفقدها ؛ لأنها آخر من تذخر الدموع لأجله ، وهذه إشارة إلى أنها آخر من بقي من أهله . وحينا يطلب من عينيه البكاء لئلا يكون غيرهما أبكى منهما . والحقيقة أننا كنا نتوقع أن يبسط الشاعر عواطفه وأحاسيسه نحو المفقودة ، وأن يعرفنا بصفاتها ، ويذكر لنا مكانتها في حياته ، ولكن الذي يبدو أن فقد أخيه ، وأمه ، وأبنائه قد هيأ نفسه لاستقبال وفاتها بهدوء واستسلام . لهذا فإنه في هذه الأبيات لا يتذمر أو يتفجع ، ولم يندفع وراء عواطف جياشة وقريحة فياضة عرفت بالإطالة وتشقيق المعنى واعتصاره ، بل ترك نفسه على سجيتها ،

(٦٣) *ديوان ابن الرومي*، ٣ : ٢٢٢ .
(٦٤) *ديوان ابن الرومي*، ٥ : ٣٠٩ .

فلا يذكر زوجته إلا حين يحس بفقدها ، ولا يحس بذلك إلا في فترات متباعدة حين يخلو إلى نفسه بعيدا عن مغريات الحياة التي عرف بالإقبال عليها، فيسجل إحساسه في أبيات هي أشبه ما تكون بالخواطر التي تلمع أحيانا في ذهن الإنسان فيسجلها سريعا لئلا ينساها . ويعزز هذا الرأي أن رثاءها جاء في أربع مقطوعات متفاوتة في عدد أبياتها، ولابد أنها كانت متفاوتة في وقت نظمها . ولم تأت في قصيدة طويلة قيلت في زمن واحد تحت تأثير عاطفة غامرة جياشة ، والمقطوعة لا تحتمل ما تحتمله القصيدة من بسط القول وتفصيله ، بل هي أشبه ما تكون بالقصة القصيرة مقارنة بالرواية التي يمكن أن نقارنها بالقصيدة الطويلة . يؤكد ذلك أن ابن الرومي حين ماتت أمه أحس بفقدها إحساسا قويا ، وجزع عليها جزعا شديدا سجله بقصيدة تجاوزت مئتي بيت شرح فيها بدقة وإسهاب صفات والدته ومكانتها في نفسه وحياته ، وذلك من مثل قوله : (٦٥)

لقد فَجَعَتْ فيك الليالي نفوسَها ... بُمحْيِيَة الأسحار حافظة العَتَمْ
ولم تخطىء الأيامُ فيك فجيعة ... بصوّامة فيهن طيبة الطُّعَم
ألا من تَليني منه في كُلّ حالة ... أبرُّ يَد برّتْ بذي شَعَث يَلُم
ألا من إليه أشتكي ما ينوبُني ... فيُفْرِجُ عني كل غَمٍّ وكلّ هَمّ

وقد أحس ابن الرومي بفقد المغنية (بستان) حين ماتت أكثر من إحساسه بفقد زوجته ، ولم يخف حزنه ولوعته عليها ؛ فرثاها بقصيدة طويلة تجاوزت مئة وستين بيتا كلها وصف لهذه المغنية في حياتها وبعد وفاتها ، وتحسَّرَ عليها بما لم يتحسر بمثله على زوجته ، مثل قوله : (٦٦)

بستانُ يا حسرتا على زَهَر ... فيك من اللهو بل على ثَمَر
بستانُ لَهْفي لحسن وجهكَ ... والإحسان صارا معا إلى العَفَر
بستانُ أضحى الفؤاد في وَلَه ... يا نزهة السمع منه والبصر
بستانُ ما منك لامرىء عِوَضٌ ... من البساتين لا ولا البشر

(٦٥) *ديوان ابن الرومي* ، ٦ : ٦٤-٧٤ .
(٦٦) *ديوان ابن الرومي* ، ٣ : ٢١-٣٠ .

مسلم بن الوليد

جاء في *ديوان مسلم بن الوليد*، نقلا عن كتاب *الأغاني* : كانت لمسلم بن الوليد زوجة من أهله كانت تكفيه أمره وتسره فيما تليه له منه، فماتت فجزع عليها جزعا شديدا وتنسك مدة طويلة، وعزم على ملازمة ذلك، فأقسم عليه بعض إخوانه ذات يوم أن يزوره ففعل، فأكلوا، وقدموا الشراب فامتنع منه وأباه، وأنشأ يقول: (٦٧)

بكاءٌ وكأسٌ كيف يلتقيـــــان سبيلاهما في القلـــب مختلفان
دعاني وإفراطَ البـــــكاء فإنني أرى اليوم فيه غـــــير ما تَرَيان
غدتْ والثرى أولى بها من وَليِّهـا إلى منزل ناء لعينـــك دانـــي
فلا وجدَ حتى تنزفَ العينُ ماءَهـا وتعترفَ الأحشـــــاءُ بالخفقان
وكيف بدفع اليأس والوجد بعدها وســـهماهما في القلب يعتلجان

يتضح من المقدمة التي قدمت بها هذه الأبيات أن الشاعر كان في مجلس شراب مع بعض أصحابه، ولعله كان، بعد وفاة زوجته، يبحث عن نسيان ما ألمّ به من حزن، وأحاط به من كآبة بعد رحيلها، ولهذا فإن تنسكه كما يبدو لم يكن تنسك الزاهد بالحياة الدنيا ولهوها، بل هو الإحساس برهبة الموت، وردة الفعل المباشرة التي تغشى الإنسان بعد فقد عزيز لديه، فيرجع إلى نفسه زاهدا بزخرف الحياة، مفكرا بمصيره ونهايته، وما يلبث بعد ذلك أن يتجاوزها وتنسيه الأيام ما حل به، فيعود سيرته الأولى. وحياته اللاهية، التي نرى خطوطها واضحة في شعره، تجعلنا نرجح هذا الاعتقاد، وهو يلخص معنى الحياة وفهمه لها بقوله: (٦٨)

سأنقادُ للـــذات متبعَ الصـــبّا لأُمضيَ هَمّا أو أُصيبَ فتى مثـلي
هل العيش إلا أن أروحَ مع الصِّبا وأغدو صريعَ الراح والأعين النُّجْل

أما علاقته بزوجته، فقد شهدت الأخبار ــ كما يقول محقق *الديوان* « بحسن أخلاقه، وطيب وداده، وعظيم إخلاصه على ما كان منه مع الغواني. »(٦٩) وفي شعر

(٦٧) شرح *ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري*، تحقيق سامي الدهان، ط٣ (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، ٣٨٣.
(٦٨) *ديوان صريع الغواني*، ٤٣.
(٦٩) *ديوان صريع الغواني*، ٢٠.

مسلم ما يؤكد ذلك ، ويكشف بوضوح عن كرم طبعه ، ونقاء سريرته ، ورقة عاطفته . نرى ذلك في قصيدة قالها يذكر فيها امرأة طلقها ، وله ولد منها ، وكأنه يرثيها ، بل إنه يشير في أحد أبياتها إلى أنه لا فرق عنده بين الطلاق والموت ، ومنها :(٧٠)

أجارتَنا ما في فراقـــك راحةٌ ولكنْ مضى قول فأنت به بَســْلُ
فَبيني فقد فارقــت غيرَ ذميــمة قضاءٌ دعانا للقطيعة لا الخَتــْلُ
فَمَاَ بيْ إلى مستطرفَ العيش وَحْشَةٌ وإن كنتُ لا مالٌ لديّ ولا أهــل
بنا لاَ بك الأمرُ الذي تكرهيــنه أتى الحلم بالعُتْبَى وقد سَكَنَ الجهل
فَلاشوقَ إن اليأس أعقب ســلوة سواءٌ نَوَى مَنْ لا يُراجَعُ والثُّكــل
لَعَمْرُ ابنها لولا احتراق الحشــا له لماتَ الجوى أو لاستُفيد بها مثــل
وَقَفْتُ لساني عنك والقول مفصحٌ وما بالقوافي عنك لوَ أُهْمِلَتَ مَهْــل
عليك ســلامٌ لم أقلْ فيك ريبة ولكن ثناءٌ كان أفســده البخل

وأبيات الرثاء ـ على الرغم مَن قلتها ـ تدل على حزن عميق ، وجرح أعمق خلفته في نفسه وفاة زوجته . ولكنها لا تكشف لنا شيئا عن صفاتها ومكانتها في نفسه ، قدر ما تكشف عن حالة الكآبة والحزن التي أصابت الشاعر بعد وفاتها ، مما يدل على حب عميق ووفاء صادق . ولعل المناسبة التي قيلت فيها هذه الأبيات توضح جانبا من جوانب العلاقة بينه وبين زوجته ، وشيئا من صفاتها التي افتقدها بموتها . فقد رأينا في نماذج الرثاء التي قدمنا في هذا البحث أن منظر الأطفال بعد موت أمهاتهم كان من أهم بواعث الحزن والكآبة التي سيطرت على الشعراء بعد وفاة زوجاتهم . أما في هذا النص ، فنحن أمام تجربة جديدة لم نعهد ها من قبل ؛ فرؤية الكأس في ذلك المجلس هي التي أثارت كوامن حزن الشاعر على زوجته ، وجعلته يحس بفقدها ، ويرتجل تلك الأبيات . وهذا موقف غريب نلحظه أول مرة في رثاء الزوجات ، ويجعلنا نتساءل عن عدم رثائها قبل لقائه بأصحابه في مجلس شراب ما دام يحتفظ لها بهذه العاطفة الجياشة ؟ وهل عَدمَ ما يُذَكّره بها أثناء حياته اليومية العادية ؟ ليس لدينا إجابة مؤكدة لهذه التساؤلات ، ولكننا نعتقد أن في هذه الأبيات إشارة خفية إلى سيرة رضية لهذه الزوجة التي ظلت وفيّة لزوج عاش

(٧٠) *ديوان صريع الغواني* ، ٨٩.

متبعا للذاته بين الراح والأعين النجل ؛ فلم تحُلْ بينه وبين حياته اللاهية ، بل تركته لها وانصرفت هي إلى شؤون حياتها ، فحفظته غائبا ، وسرته حاضرا . ولو كانت سيرتها بخلاف ما ذكرنا لربما أقبل على الكأس محاولا نسيانها ، وتعويض ما فاته من لَهْو كان وجودها يحول دونه . ونعتقد ـ أيضا ـ أنه لو كان له أطفال صغار منها لأشار إليهمّ في هذه الأبيات كما أشار إلى طفله الصغير من امرأته التي طلقها في الأبيات التي أوردناها آنفا .

والشاعر ينكر على جلسائه في بداية أبياته تقديم الكأس إليه وهم يعرفون ما به من همٍّ وحزن ، ويؤكد لهم بأن البكاء والكأس ضدان لا يلتقيان لاختلاف سبيليهما في القلب . وهذه نظرة طارئة ، أو لنقل ، رأي جديد له في الخمرة ، فاجأ به أصحابه الذين كانوا مدفوعين بما كان ينادي به دائما من طرد الهموم والأحزان بالخمرة ، من مثل قوله : (٧١)

تَصُدّ بنفس المرء عمّا يَغُـــمّه وتُنطق بالمعروف ألســنة البخل

وقوله : (٧٢)

أيامَ للعذل إكثار ومعـــصية والراح تسرع في عقلي وأحزاني

وقوله : (٧٣)

مميتةٌ لهموم القلب محيـــيةٌ للبشر ، نافيةٌ للفكر والوَصَــب

والشاعر لم يذكر اسم المرثية ، ولكنه أشار إليها بضمير الغائب في البيتَين الثالث والخامس ، وكأن ذلك كان امتدادا لحديث كان يدور بينه وبين أصحابه عن زوجته في ذلك المجلس . وكأن الشاعر نفسه فوجئ بهذا النوع من الحزن القاتل الذي أصابه بسبب وفاة زوجته فالتمس من صاحبيه أن يتركاه لبكائه ؛ لأنه عرف أخيرا «أن البكاء هو الشفاء من الجوى بين الجوانح » (٧٤) وليس الخمرة ، من أجل ذلك فإنه سوف يستمر في بكائها حتى تنفد دموعه ، وتحترق أحشاؤه ؛ لأن اليأس منها ، والوجد عليها ما يزالان يلهبان قلبه بالألم والحزن .

---

(٧١) *ديوان صريع الغواني* ، ٣٦ .

(٧٢) *ديوان صريع الغواني* ، ١٢٣ .

(٧٣) ديوان صريع الغواني . ص٢١٠ .

(٧٤) هذا بيت معروف للخنساء .

الطغرائي

عاش أبو إسماعيل الحسين بن علي ، المعروف بالطغرائي ، القسم الأكبر من حياته في القرن الخامس الهجري ، وتوفي في بداية القرن السادس أثناء سيطرة السلاجقة على الدولة العباسية ، وكان على قدر كبير من العلم والثقافة والطموح ، مما أهّله لأعلى المناصب في الدولة ، كان آخرها وزيرا للسلطان مسعود بن محمد السلجوقي صاحب الموصل ، ومات مقتولا بسبب المنافسات السياسية بين السلاطين السلاجقة .

للطغرائي في رثاء زوجته ثمانون بيتا جاءت في قصيدتين وخمس مقطوعات . وهذا أكثر ما قاله شاعر قديم في رثاء زوجته كما تبين الإحصائية الملحقة بآخر هذا البحث . وقد قُدمت هذه القصائد والمقطوعات في *ديوانه* إما بجملة : (وقال يرثي حظية له) ، أو بجملة : (وقال يرثي ستيرته)، وهاتان الكلمتان تحتملان الجارية أو الزوجة كما تنص معاجم اللغة . [٧٥] ولم نجد فيما كتب عن حياته ما يحدد لنا شخصية تلك الحظية أو الستيرة ، أهي زوجة ، أم جارية ؟ ولكن في بعض تلك النصوص الرثائية بعض الإشارات التي تؤكد أن تلك المرثية كانت جارية أحبها وبذل أموالا طائلة للظفر بها ، فتزوجها بأخَرَة من عمره ، على الرغم من معارضة أهله وذويه . وقد أشار إلى ذلك بقوله في إحدى رثائياته : [٧٦]

أأبقى حطاما باليا فَوقَ ظهـــــرها ... ومن تحتها خُرعوبةُ الغُصُنِ النّضـــْر
بنفسيَ من غاليت فيها بمهـــــجتي ... وجاهي وما حازت يدايَ مـــن الوَفْر
وغايضتُ فيها أهل بيتي فكلُّهـــــم ... بَعيدَ الرضا يطوي الضلوع على غَمْر
وفُزْتُ بها من بعد يأس وخيبــــــة ... كما استخرج الغواص لؤلؤة البحـــر

(٧٥) ورد في مادة (حظا) في *لسان العرب* : « الحُظوة والحظوة : المنزلة والمكانة . وحظيت المرأة عند زوجها حُظوة وحظوة . . . وامرأة حظية ، وهي حظيتي ، وإحدى حظاياي » وجاء في مادة (ستر) : « ورجل مستوَر وستير أي عفيف ، والجارية ستيرة . »

(٧٦) *ديوان الطغرائي* ، تحقيق علي جواد الطاهر ويحيى الجبوري ، ط٢ (الكويت : دار القلم ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ١٥١ .

ويؤكد زواجه منها ، بقوله : [٧٧]

بنفســـــي أنت ظاعنة تولـــــت وخلّت في الحشا وجدا مقيمـــــــا
بَنَيْتُ بها فما استكملتُ عرســـي إلى أن قيل مأتمها أقيـــمـــــــا

ويكرر الإشارة إلى زواجه منها في مقطوعة أخرى ، فيقول : [٧٨]

ألا ليت أنّا ما اصطحبنا ولم نَبتْ قرينين في خفض من العيش توءما
ولمْ نُرْزقْ الوصلَ الذي عاد فرَقة ولـم نعهد العرس الذي صار مأتما

ونعرف أيضا من النصوص أنه رزق منها بطفل ، فلم تكن بهجته به أكبر من إشفاقه عليه بسبب تقدمه بالسن ، فقال يذكره من قصيدة : [٧٩]

هذا الصغير الذي وافَى على كبري أقرّ عيني ولكن زاد في فكـَـري
وافَى وقد أبقت الأيام في جسَدي ثلما كَثَلْم الليالي دارة القَمــــر
سبع وخمسون لو مرت على حجر لبَانَ تأثيرها في صفحة الحجـــر
فزاد حرصي على الدنيا وجـَدَّدَ لي ظنا بمالي وإشفاقا على عُـمُري

وما قدمنا من أبيات تؤكد أن المرثية كانت جارية أحبها الشاعر ثم اشتراها (بما حازت يداه من الوفر) وتزوجها بعد أن تقدم به العمر على الرغم من معارضة أهل بيته ، ولكن هذه الزوجة الشابة توفيت بعد فترة قصيرة من هذا الزواج وقد خلفت له طفلا رضيعا وهو في السابعة والخمسين .

وقد تركت وفاة هذه الزوجة جرحا نازفا في قلب الشاعر ، وحسرة كادت أن تقضي عليه ، بسبب الحب الذي غمرت به حياته ، فضحى في سبيله بمهجته ، وجاهه ، وماله ، وعلاقاته بأهله وذويه ، وهذه كلها أشياء ثمينة لايمكن أن يتخلى عنها الإنسان بسهولة ، إلا أن الطغرائي تخلى عنها كلها مقابل الظفر بالمرأة التي أحبها وهام بها ، فكانت وفاتها السريعة كارثة كبرى بالنسبة إليه . وقد جاءت مراثيه لتلك المرأة بمستوى هذا الحب وهذه التضحية ، فكانت مزيجا من الغزل والرثاء والبكاء على ما فاته من الحياة السعيدة مع

(٧٧) *ديوان الطغرائي* ، ٣٤٦ .

(٧٨) *ديوان الطغرائي* ، ٣٤٧ .

(٧٩) *ديوان الطغرائي* ، ١٦٣ .

هذه الزوجة الفتية ، فتمنى اللحاق بها ، ورأى بقاءه بعدها غاية الغدر . وطغت عاطفته طغيانا أذهله عن الاحتساب والدعاء لها ، كما فعل جرير ، فرفض الصبر وأجره ، ولم يرض بحور الجنان بديلا عنها في الآخرة ، فقال متجاوزا كل الحدود التي يجب أن يقف عندها المؤمن بقضاء الله وقدره : (٨٠)

ويا صبر زُلْ عني ذميمـــا وخلّني ولوعة وجدي والدموع التي تَمْري
ولاتعدَنّي الأجـــرَ عنها فإنهـا ألذّ وأحلى في فؤادي من الأجـــر
أيُبْدَل لي حور الجنان نســـيئة وتؤخذ نقدا من ورائي وفي خدري
وأقنع بالموعود وهو كمـــا ترى وأصبر للمقدور وهو كما تـــدري
ومن ذا الذي يرضى أن اعتاض كفُّه يواقيتَ حمرا من أناملهـا العـشر
بلى إن يكن حظي من الخلد وحدها صبرتُ فكانت نعم عاقبـة الصبر
ويا موت ألحقني بها غير غـــادر فإن بقائي بعـــدها غاية الغـــدر

وفي مقطوعة أخرى يرى أنه أجدر بالموت منها لكبر سنه ، وأنها أحق بالبقاء لنظارتها وشبابها ، فيقول : (٨١)

تالله ما اخترتُ التوقفَ ساعة من بعد يومـك لو خُلقتُ مخَيَّرا
ياليت أنك بالحذا من ناظـري وســوادُه لك موطئٌ دون الثرى
غصنان مؤتلفَان أفْرَدَ واحدا ريبُ المنيـــــة منهما فتَطَهّرا
ما ضرَّه فيما جناه عليهمـــا لو كان قدم منهما ما أخـــرا
هيهات أن يبقى الحطام بحاله من بعد ما هصر الأغض الأنظرا

وقصيدته القافية التي يصف فيها لحظة احتضارها وموتها من أرق القصائد في رثاء الزوجات وأكثرها تأثيرا ، مما يكشف عن عاطفة جياشة وصدمة قوية أذهلت الشاعر وجعلته غير مصدق لما أصابه ، وفيها يقول : (٨٢)

---

(٨٠) *ديوان الطغرائي* ، ١٥٣ .
(٨١) *ديوان الطغرائي* ، ١٥٥ .
(٨٢) *ديوان الطغرائي* ، ٢٦٤ .

ولم أنسها والموت يقبض كفَّها ويبسطها والعين ترنو وتطرق
وقد دمعت أجفانها وكأنها جَنَى نرجس فيها الندى يترقرق
وحلَّ من المحذور ما كنتُ أتقي وحُمّ من المقدور ما كنت أفرق
وقيل فراق لا تلاقيَ بعده ولازاد إلا حسرة وتحرق
وأُبلسُ حتى ما أبينَ كأنما تدور بي الأرض الفضاء وأُصْعَق
وألصقها طورا بصدري وأشتفي وأمسحها حينا بكفي فتعبق
وما زرتها إلا توهمت أنها بثوبي من وجدي بها تتعلق
وأحسبها والحجب بيني وبينها تعي من وراء الترب قولي فتنطق
وأشعر قلبي اليأس عنها تصبرا فيرجع مرتابا به لا يصدق

والطغرائي يشبه ابن الزيات في جوانب من حياته ومماته؛ فكلاهما كان وزيرا كاتبا شاعرا مشهودا له بالعلم والثقافة، وكلاهما مات مقتولا، ضحية لطموحاته السياسية. بيد أن نظرتهما إلى المرأة المرثية تختلف اختلافا كبيرا؛ فابن الزيات رثى زوجته بقصيدة لم تتجاوز تسعة عشر بيتا فقط، ومقطوعة من بيتين، وكان طفله الدافع الأهم في رثاء زوجته. أما الطغرائي، فقد رثى زوجته بقصيدتين وخمس مقطوعات مجموع أبياتها ثمانون بيتا، ولم يرد ذكر لطفله إلا في بيتين فقط في بداية إحدى المقطوعات. وهذا يؤكد أن الطفل لم يكن دافعا لرثائها كما كان عند ابن الزيات، على الرغم من أن طفل الطغرائي كان رضيعا في أشد الحاجة إلى أمه، بل إن الشاعر عدّ نفسه مثل طفله الذي انتزع من ثدي والدته، حين انتزع الموت منه من كان يضاجعه، وإلى ذلك يشير بقوله: [٨٣]

يا بؤس منتزعٍ من ثدي والدة حفية مالَه من دونها والي
يستخبر الريحَ عنها ثم ينكرها لفَقْدِ ما اعتاد من برّ وأشكال
وبؤسَ منفرد عمن يضاجعه مشردَ النوم بين الأهل والمال
يزيد حرَّ حشاه بردُ مضجعه ويملأ القلب شجوا ربعه الخالي

وتجربة الطغرائي مع زوجته الشابة أقرب شبها بتجربة الوليد بن يزيد؛ فكلاهما

(٨٣) *ديوان الطغرائي*، ٣١٢.

أحب زوجته قبل الزواج وهام بها ، ثم تزوجها بعد طول انتظار ، وماتت بعد فترة قصيرة من الزواج . وقد برزت في رثائهما صورة الحبيبة أكثر من صورة الزوجة . وأحسب أنه لو وصلنا من شعر الوليد بن يزيد مثل ما وصلنا من شعر الطغرائي لرأينا تشابها أكثر في بكائهما ودموعهما .

نتيجة البحث

قلنا في بداية هذا البحث إنه سوف يكون إجابة عن سؤالين ، هما : لماذا سكت الشعراء عن رثاء زوجاتهم ؟ ولماذا رثاهن بعضهم ؟ ويمكن أن نلخص الإجابة عنهما ــ والتي حاولنا أن نبسطها فيما تقدم من فقرات ــ بالنقاط التالية :

١) إن الثقافة الاجتماعية المسيطرة في المجتمع العربي آنذاك كانت ثقافة ذكورية ، ترد جميع القيم الاجتماعية الممتدحة ، مثل الكرم والشجاعة ، إلى الرجل . أما المرأة ، فلم يكن لها الأثر الاجتماعي المعلن الذي نراه للرجل ، فكانت في مرتبة أقل منه ، لهذا اتسع المجال أمام الشاعر في رثاء الرجال ؛ لأنه يرثيهم بما كان يمدحهم به ، وضاق في رثاء النساء لضيق الأوصاف ، كما قال ابن رشيق . يضاف إلى ذلك ، أن العربي كان يعدّ ولادة البنت عارا اجتماعيا ، وعبئا اقتصاديا ، مما دعا بعض العرب إلى التخلص منها بعد ولادتها بالوأد الذي حاربه الإسلام . وقد ترسخت هذه الأفكار في عقلية الإنسان العربي فيما بعد ، فأصبح الوأد المادي قبل الإسلام وأدا عاطفيا بعده ، وقد ظهر ذلك جليا عند بعض الشعراء الذين أوردنا بعض نصوصهم في هذا البحث . والنظرة إلى الزوجة كانت جزءا من النظرة إلى المرأة بعامة ، فلم نجد ــ فيما اطلعنا عليه من مراجع ــ شاعرا قبل جرير رثى زوجته بقصيدة طويلة ، وكل ما وجدناه قبله ثلاث مقطوعات قصيرة لثلاثة من الشعراء ، كان الأطفال هم الدافع الرئيس لرثائهم زوجاتهم .

٢) كان الامتزاج الاجتماعي بين العرب وغيرهم من المجتمعات الأخرى سببا في التخفيف من النظرة السلبية نحو المرأة ، وقد لحظنا خلال بحثنا أن التحول التدريجي في موقف الشاعر من رثاء المرأة بعامة ، والزوجة بخاصة ما هو إلا جزء من التحولات التي طرأت على المجتمع العربي منذ انفتح على المجتمعات الأخرى . كما لحظنا أن الشعراء الذين رثوا زوجاتهم عاشوا في مجتمعات حضرية ، وأن بعضهم ممن تولى مناصب قيادية في

الدولة الإسلامية . وهذا يشير إلى أثر الانفتاح الاجتماعي ، والمستوى المعيشي المتحضر في توجيه الأدب وجهة كانت مغلقة من قبل .

٣) رأينا خلال بحثنا في نصوص رثاء الزوجات صورا مختلفة للزوجة المرثية كانت وراء ظهور تلك النصوص ؛ فالشاعر لا يرثي زوجته إلا إذا أحس بفقدها ، بيد أن الإحساس بفقد الزوجة يختلف باختلاف النظرة إليها ؛ فمن الشعراء من بكى زوجته من خلال إحساسه بأطفاله الذين فقدوا أمهم ، ومن الشعراء من بكى رفيقة دربه التي قضى معها سنوات طويلة فأحس بفقدها من خلال إحساسه بالوحدة . ومنهم من بكى الزوجة الحبيبة التي فقدها بعيد الزواج بفترة قصيرة . وعدم رثاء الشاعر لزوجته لايعني بالضرورة عدم إحساسه بفقدها ؛ فبعض الشعراء لابد أنهم أحسوا بفقد زوجاتهم بعد موتهن ، ولكن إحساسهم بقيود الثقافة الاجتماعية كان أقوى .

٤) لم يأت رثاء جرير ـ الذي نعدّه مؤسس هذا الاتجاه ـ بقصيدة مستقلة ، بل جاء مقدمة لقصيدة هجائية ، وهذا مخالف للعرف السائد بين الشعراء الذين اعتادوا على التقديم بالغزل أو الوصف لغرض القصيدة . ولم نر الرثائية المستقلة إلا في العصر العباسي . وهذا يؤكد تأثير الزمن والثقافة في توجيه الأدب وجهة جديدة كانت الثقافة الاجتماعية تقف عائقا دونها .

٥) جاء الطغرائي في مقدمة الشعراء الذين رثوا زوجاتهم ؛ فقد رثى زوجته بثمانين بيتا جاءت بقصيدتين وخمس مقطوعات . ولم نر أثرا لطفله الذي تركته زوجته إلا في بيتين ، أما بقية الأبيات فكلها بكاء ونواح وحسرة على فراق تلك الحبيبة الشابة . وقد كانت عاطفته جياشة غامرة فانساق وراءها انسياقا أخرجه عن الحدود التي يجب أن يقف عندها المؤمن بالقضاء والقدر ، وهذا بخلاف ما رأيناه عند جرير الذي كشف عن عاطفته نحو زوجته بهدوء وإيمان بقضاء الله وقدره . ولعلنا نجد تفسيرا لاختلاف الموقفين في سيرة كل منهما ، فجرير كان رجلا مشهودا له بالدين والتقوى ؛ أما الطغرائي ، فقد كانت تحوم حوله تهمة الزندقة والإلحاد ، وقد قتل بهما . وعامل آخر لابد من الإشارة إليه وهو عامل الزمن ، فجرير رثى زوجته بعد فترة من موتها مما أتاح لنفسه أن تستقر وتهدأ بعد فجيعة الموت ؛ أما الطغرائي فقد جاء رثاؤه أثناء طغيان عاطفته وجيشانها بعد صدمة الموت .

ما وقفنا عليه من أسماء الشعراء الذين رثوا زوجاتهم في المصادر القديمة

اسم الشاعر	سنة وفاته بالتاريخ الهجري	عدد القصائد	عدد المقطوعات	عدد الأبيات
أعرابي غير معروف	غير محددة		واحدة	بيتان
رجل من الأنصار	غير محددة		واحدة	ثلاثة أبيات
مويلك المزموم	غير محددة		واحدة	ستة أبيات
الفرزدق	(١١٤)	واحدة	واحدة	خمسة عشر بيتا
جرير	(١١٥)	واحدة		أربعة وعشرون بيتا
الوليد بن يزيد	(١٢٦)		ثلاث	تسعة أبيات
ابن الزيات	(٢٣٣)	واحدة	واحدة	واحد وعشرون بيتا
مسلم بن الوليد	(٢٠٨)		واحدة	خمسة أبيات
ابن الرومي	(٢٨٣)		أربع	ثلاثة عشر بيتا
الطغرائي	(٥١٥)	اثنتان	خمس	ثمانون بيتا
ابن نباتة المصري	(٧٦٨)	واحدة		ثمانية عشر بيتا
ابن حمديس	(٥٢٥)	واحدة		خمسون بيتا
أبو إسحاق الألبيري	أندلسي (٤٧٠)	واحدة		ستون بيتا
الأعمى التطيلي	أندلسي (٥٢٥)	واحدة		أربعة وخمسون بيتا
أبو عمار بن الحمارة	أندلسي (٥٧٠)		واحدة	بيتان
أبو محمد بن القبطرنة	أندلسي (أوائل القرن السادس)		اثنتان	ستة أبيات
أبو بكر بن القبطرنة	أندلسي (٥٢٠)		اثنتان	اثنا عشر بيتا
١٧ شاعرا	٩ قصائد	٢٢ مقطوعة	٣٨٠ بيتا	

The Elegy of Wives in Arabic Poetry during the Umayyad and Abbasid Periods

Abdulrahman I. Ismail

Associate Professor, Dept. of Arabic Language and Literature, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. Love Poetry, *ghazal,* has occupied a significant portion of Arabic poetry. The poet stood by his beloved's remains and sites, and besought others to do so. He also lamented her departure as she moves away, and besought others to do so. He found no shame in such feelings ; indeed, he perceived it as a true expression of his love, and a manifestation of loyalty to the beloved. Contrary to this attitude, however, he abstained lamenting her departure after death, standing by her grave another manifestation of his loyalty toward her. He perceived this as a point of weakness unsuitable to his social status. Poets seldom lamented their wives and rarely expressed their feelings of loyalty after death, for reasons amongst which the social ones are the strongest. Thus, the elegizing of wives has become a phenomenon deserving special study in order to find out the extent of its connection to social changes and transformation which took place in the Arab world following its intermingling with other societies. The aim of this research is to study this phenomenon since its appearance in Jarir's poetry, and to explore the circumstances which surrounded the poets who elegized their wives during the Umayyad and Abbasid periods in order to find out the factors which caused them to deviate from their inherited cultural and social context.